

اقرأ

سارى الكيالى

من أضواء الماضي



دار المعارف بمصر



مِنَ أَضْوَاءِ الْمَارِضِي



سأبج الكلى

## من أضواء الماضي

٩٥

اقرأ

دار المعيار للطباعة والنشر بمصر

اقراء ٩٥ - أكتوبر سنة ١٩٥٠



جميع الحقوق محفوظة  
لدار المعارف بمصر

## الحكيم شهاب الدين السهروردي

إلى الذين لا يتورعون أن يحكموا  
على كل مؤمن بالكفر ، وعلى كل  
مفكر بالإلحاد أهدي هذه الصفحات ...

بلصق دار البريد بحلب حجرة تضم رفات مفكر  
إسلامي حر ، اشتغل بالفقه ، وراض نفسه على التصوف ،  
ونظم الشعر ، وحاول السحر ، وأمل في الفلسفة ودون في  
العلم ، وطوف في البلدان وهو شاب في ريعان العمر ،  
وما زال حتى قذفت به الأقدار إلى حلب فاندمج بالبيئات  
العلمية ، يناظر نقهاءها ويجادل علماءها فيبزمهم ويتفوق عليهم  
تفوقاً أثار حفيظتهم ، فكادوا له ودرسوا ، وما زالوا يكيدون  
ويذسون حتى أمر السلطان بهدر دمه ، فذهب ضحية  
الوشاية والحسد وسوء الخلق — هذا المفكر الإسلامي الحر  
الذي يشوى في غرفة باردة لا ترى النور ، هو يحيى بن  
حبش السهروردي صاحب القصيدة المتداولة في أروقة  
الصوفيين والتي مطلعها :

أبدأ تحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح



وقلوب أهل وداكم تشاؤكم وإلى لذيذ لقاءكم ترتاح  
فما قصة هذا العالم الشهيد ؟ وفي عهد "من" من الملوك  
عاش ؟ وما هي الحياة السياسية في عهده ؟ وما لون  
الآراء والعقائد في زمنه ؟ . . . هذا ما نريد أن نتناوله  
بالبحث .

\* \* \*

الذين عرفوا ، في تاريخ العقلية الإسلامية ، بالسهروردي  
أكثر من مفكر واحد ، وجميعهم اشتهر بالفضل والعلم  
والأدب . ولكن الذي يعنينا من هذا البحث ، هو السهروردي  
الذي قتل في حلب لاثامه بالتعطيل والزندقة بعد أن سجل  
الفقهاء وثيقة كفره .

ولا شك أن حياته تتميز بما تتميز به قصص شهداء  
الفكر ، فهو ذكي حاد الذكاء ، وهو عالم مفكر حر  
الترعة كفيلسوف متصوف ، وهو شاعر دقيق الشاعرية ازدرى  
العامة والعلماء والأمراء والملوك ، وقنع بكفاف العيش ، بل  
ازدرى نفسه كإنسان فلم يهتم لما يهتم له الناس من المظاهر ،  
فكان زرى الثياب زرى الهيئة على قول من أرخوا له . نعم ،  
لم يكن يهتم إلا بشؤون الفكر وقضايا النفس ، وهذه سمة  
ظاهرة للمفكرين العلماء ، بل المتصوفين الذي يعرفونهم الدهول



في كثير من الحالات فينسون أنفسهم ولا يهتمون للمظاهر العرضية بقدر اهتمامهم بما هم مشغولون به من جواهر الأمور وحقائقها العليا . وهكذا كان السهروردي ، فقد اتفق الجميع من أرخ له على وصفه بهذه الصفات البارزة : كابن خلكان وابن شداد والذهبي والآمدي والحنبلي وغيرهم ممن كتبوا عنه ، كياقوت الرومي الذي يترجمه بالفقرات الآتية :

« شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي ، كان فقيهاً شافعي المذهب أصولياً أديباً شاعراً حكماً متفتناً نظاراً ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه . قرأ بالمراغة على الشيخ الإمام مجد الدين الجيلي الفقيه الأصولي المتكلم ، ولازمه مدة ، ثم تنقل في البلاد على قدم التجرد ، ولقي بماردين الشيخ فخر الدين المارديني وصحبه ، وكان يثنى عليه كثيراً ، ويقول لم أر في زماني أحداً مثله ، ولكنني أخشى عليه من شدة حدته وقلة تحفظه . ثم رحل أبو الفتوح إلى حلب فدخلها في زمن الظاهر غازي بن أيوب سنة ٥٧٩ هجرية ، ونزل في المدرسة الحلاوية وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ، وبحث مع الفقهاء من تلاميذه وغيرهم ، وناظرهم في عدة مسائل فلم يجاره أحد منهم وظهر عليهم ، وظهر فضله للشيخ افتخار الدين ، فقرب مجلسه وأدناه ، وعرف مكانه في

الناس . ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء وكثر تشنيعهم عليه (١) . «

وفي النجوم الزاهرة (٢) : « أن السهروردي كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسيمايا وأبواب النيرنجيات (٣) ، فاستمال بذلك خلقاً كثيراً ، وتبعوه ، وله تصانيف في هذه العلوم . » وقال أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة في كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » : « كان السهروردي أوحده أهل زمانه في العلوم الحكمية ، جامعاً للعلوم الفلسفية ، بارعاً في الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله . »

وقال ابن خلكان : « كان السهروردي من علماء عصره ، قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان إلى أن برع فيهما . وهذا مجد الدين الجيلي هو شيخ فخر الدين الرازي وعليه تخرج وبصحبه انتفع ، وكان إماماً في فنونه . »

وفي العبر : « السهروردي أحد أذكى بني آدم ، كان

(١) « معجم الأدباء » لياقوت ج ٧ ص ٢٦٩ طبعة مرغليوث .

(٢) « النجوم الزاهرة » ج ٦ ص ١١٤ طبعة دار الكتب المصرية .

(٣) جمع نيرنج ، وهو أخذ تشبه السحر وليس بحقيقته .

رأساً في معرفة علوم الأوائل بارعاً في علوم الكلام ، مناظراً  
محججاً مترهداً مزدرياً للعلماء مستهزئاً رقيق الدين . »

هذه هي آراء معاصريه ومن إليهم من المؤرخين . وقد  
اتفقوا كلهم على الإلماع إلى فرط ذكائه وقوة علمه ، وعلى  
أنه قوى الحجة ، ذرب اللسان في مناظراته ، وأنه من أفذاذ  
عصره الموهوبين في العلم والفقه والحكمة والفلسفة .

قدم حلب ، في عهد الملك الظاهر أبي منصور غازي  
ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي . وحلب إذ ذاك تغص  
بالعلماء والفقهاء ، وبأفاضل الرجال من مختلف الطبقات .  
وكانت إلى هذا في مصطرع من المذاهب والتيارات الدينية  
والسياسية ، تعيش في حياة قلق مضطربة ، فقد اشتبك  
الغرب في حروب دينية دامية في هذه الأصقاع التي تمتد  
من مصر إلى بيت المقدس ، إلى أقصى سوريا الشمالية . . .  
وأية حروب ؟ حروب كر وإفناء . فحروب العقائد لا تقل  
في عنفها ، برغم اختلاف وسائل القتال ، عن بقية الحروب .  
إنها تستهدف الدواعي عن الدين والدفاع عن أرض الوطن معاً ،  
وكلاهما حافظان قويان لأن يثرا نيران القتال بشدة ، وأن  
يدفعا المحاربين للقتال بعنف وجنون .

ولست هنا في معرض وصف الحروب الصليبية ، وقد

كتب حولها عشرات المجلدات في مختلف اللغات ، ولكنى أردت ، وأنا أتكلم عن السهروردي الفيلسوف الحكيم الذي ذهب ضحية معتقده وتفكيره الحر ، أن ألمع إلى طابع العصر ، لأثره القوى في توجيه النفوس نحو الفكرة التي يعيش في صميمها الكاتب الأديب أو العالم الفيلسوف ، فأنت لا تستطيع أن تتكلم عن الحرية في عصور الاستبداد ، ولا عن الديمقراطية في عهود الدكتاتوريات ، فهذا الذي يعرض الفكر والحرية ويعرض المفكرين الأحرار إلى العنت والظلم والأذى والاضطهاد . وهذا الذي حفز الفقهاء — وطابع العصر على ما هو عليه من التعصب الديني — أن يستغلوا هذا الشعور الهائج فيصوروا السهروردي المفكر بأنه من المجدفين على الله ، المنكرين لنبوته رسوله انتقاماً لشهوات أنفسهم ، بعد أن أفحمهم برذوده وجعلهم أنصاف علماء أو في حكم الجاهلاء .

كانت حلب كأكثر المدن الإسلامية ، تجتاز هذه الفترة من الحياة العقلية والسياسية في عهد الأيوبيين ، وكان صلاح الدين هو سيد هذه المناطق التي تمتد من أقصى مصر إلى أقصى حلب ، وكان لا بد له ، وقد انتهى من حروبه أو كاد ، من أن يوطد ملكه في الأطراف ، فما دخلت

سنة ٥٨٢ هـ حتى كانت فكرة تقسيم البلاد بين آله وأبنائه (١) قد اختمرت في ذهنه ، فأعطى ولده العزيز عثمان مصر ، وولده الأفضل الشام ، وولده الظاهر حلب ، وأعطى أخاه العادل أبا بكر إقطاعات كثيرة بمصر . فلماذا خص ولده الظاهر بحلب ؟

يذكر المؤرخون أن صلاح الدين كان يحب ابنه الظاهر حباً جماً ، ومع أن عدد أبنائه سبعة عشر ، بينهم ابنة واحدة ، فقد كان الظاهر أحبهم إليه ، لما فيه من الخلال الحسنة ، فهل كانت حلب أثمن مدينة في الرقعة الإسلامية حتى أهداها إلى أحب أولاده إليه ؟

لذلك قصة طويلة لا بأس من الإلماع إليها طالما انتقلنا من الحديث عن السهروردي إلى الملك الظاهر :

في النجوم الزاهرة : أن علم الدين سليمان بن جندر أحد أمراء حلب قال لصلاح الدين - وكان بينهما مؤانسة : - بأى رأى كنت تظن أن وصيتك تنفذ ؟ - يشير بهذا إلى وصيته بتقسيم البلاد بين آله وأبنائه - كأنك كنت خارجاً إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك ؟ أما تستحي أن يكون

---

(١) الذى ربيم هذه الحطة هو القاضى الفاضل عبد الرحمن بن على البيسانى الذى كان وزيراً لصلاح الدين، كما استوزر لابنه العزيز، وتوفى سنة ٥٩٦ هـ.

الطائر أهدى منك إلى المصلحة ؟ !

قال صلاح الدين - وهو يضحك - وكيف ذلك ؟  
 قال : إذا أراد الطائر أن يعمل عشًا لفراخه قصد إلى أعالي  
 الشجر ليحمي فراخه ، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك  
 وجعلت أولادك على الأرض . هذه حلب ، وهى أم البلاد ،  
 بيد أخيك - وكانت بيد الملك العادل - وحماة بيد ابن أخيك ،  
 وحمص بيد ابن عمك أسد الدين ، وابنك الأفضل مع تقي  
 الدين يخرجهم متى شاء ، وابنك الآخر مع أخيك فى خيمة  
 يفعل به ما أراد . فقال له صلاح الدين : صدقت ، فاكم  
 هذا الأمر . ثم أخذ حلب من أخيه العادل وأعادها إلى  
 الملك الظاهر ، وأعطى العادل بعد ذلك حران والرها  
 وميافارقين ليخرجه من الشام ، وفرق الشام على أولاده ،  
 فكان ما كان ، وزوج صلاح الدين ولده الملك بغازية  
 خاتون ابنة أخيه الملك العادل المذكور (١) .

وكان صلاح الدين - كما يقول القاضى بهاء الدين  
 المعروف بابن شداد - يرى أن حلب هى أصل الملك وجرثومته  
 وقاعدته (٢) . وهذا الذى جعله يختار لها أحب أولاده إليه .

(١) «النجوم الزاهرة» ج ٦ ص ٣١ و ٣٢ طبعة دارالكتب المصرية.

(٢) سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن

اليوسفية ص ٥٨ طبعة مصر .



وقد ولد الملك الظاهر بالقاهرة سنة ثمان وستين وخمسمائة  
ونشأ نشأة أبيه ، فكان ملكاً مهيباً وله سياسة وفطنة ودواة  
معمورة بالعلماء والأمراء والفضلاء ، وكان محبباً للرعية والوافدين  
عليه ؛ حضر معظم غزوات والده ، وكان في دولته من الأمراء :  
ميمون القصرى ، والبارز بن يوسف ، وسنقر الحلبي ،  
وغيرهم من الصلاحية ؛ ومن أرباب العظام : القاضي بهاء  
الدين بن شداد ، والشريف الافتخارى الهاشمي ، والشريف  
النسابة ، والقيسرواني وبنو الخشاب وغيرهم ؛ وكان ملجأ  
للغرباء وكهفاً للفقراء ، يزور الصالحين ويتفقدهم وبقى على  
ذلك إلى أن توفي في ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة  
بعدة الدرب ، ودفن بقلعة حلب ، ثم نقل بعد ذلك إلى  
مدرسته التي أنشأها أمام القلعة .

\* \* \*

تميزت حياة السلطان الظاهر بهذه الخصائص وبغيرها  
من الميزات ، وكثيراً ما أنجد صاحب حصص حين هاجمه  
الإفرنج فأنقذه ، وطرد أعداءه حتى طرابلس ، كما قضى  
على أعمال النهب التي كان يقوم بها في أطراف حلب  
ابن لاون — أو ليون الأرمني — على رواية بعض المؤرخين .  
وبينا كان أخوه الأفضل صاحب دمشق متغمساً في اللعب

واللهو كان الظاهر مثال الرصانة والسداد والحزم ، مقتضياً  
 أثر والده في الحذب على الرعية وصون مملكته لا سيما أنه  
 كان يعلم أن أقل نكسة تكفي لانهيار الملك وضياع التراث  
 الضخم الذي أعاد بناءه صلاح الدين . فقد كان الأعداء  
 على الأبواب ، يتحفزون ويتربصون لأقل بادرة ، بل كانوا  
 يرتقبون أقل فرصة للانقضاض واسترجاع هذه البلاد التي  
 صبغت جوانبها بالنجيع الأحمر وذهبت في سبيلها مهج  
 النفوس .

\* \* \*

حياة الظاهر هذه التي تميزت بأنبل الخصائص ، ودولته  
 التي كانت معمورة بالعلماء وأولى الفضل ، قد تلطخت بتلك  
 الوصمة التي قضت بهدر دم نفس بريئة ، نفس عالم شاب  
 من أزكى العلماء وأرفعهم قدراً . ولا نسترسل في تاريخ حياة  
 الظاهر أكثر من هذا ، فحسبنا منها هذه اللمحة السريعة  
 لنضيء جانباً من حياة السهروردي ، وكيف ثار ضده فقهاء  
 حلب ، وكيف شكوا أمره إلى السلطان وأردفوا الشكوى بوثيقة  
 كفره ، وكيف أمر السلطان صلاح الدين بهدر دمه ، ثم  
 كيف نفذ الظاهر الحكم ؟ وكيف ندم بعد قتله على فعلته  
 وبطش بالمحرضين وانتقم منهم أبشع انتقام ؟



كان الإمام شهاب الدين يعيش في بلدة «سهرورد» لا يُعنى إلا بما يشغل المفكرين عادة من الغوص على المذاهب يناقشها مناقشة الباحث المفكر ، والعالم المجتهد . وكأني به قد ضاق ببلده فترح إلى أقرب المدن الإسلامية التي تخفق عليها رايات صلاح الدين . فجاء إلى حلب بعد أن استفاضت أنباء ملكها الظاهر وطرقت انتصارات أبيه مسمعه وهو في بلدة «سهرورد» . وسهرورد بلدة في العراق العجمي ، قرية من زنجان من أعمال أذربيجان . وإذا علمنا أن منبت السلطان صلاح الدين من «دوين» ، وهي بلدة من أعمال أذربيجان أدركنا الصلة التي تربطه بهذه الأسرة التي لعبت أكبر دور في تاريخ الإسلام السياسي في القرن السادس الهجري فهما من منطقة واحدة ، وهو كعالم مفكر يفيض قلبه بالحكمة والإيمان كان أكثر زهواً وأشد سروراً من غيره لهذه الأنباء . وقد اجتذبت هذه البقاع العربية التي كانت أوسع مسرح للحروب العنيفة التي أثارها الإفرنج على صلاح الدين . نعم ، اجتذبت هذه البقاع بعد أن ضاقت به بيئته أو ضاق هو بموطنه فشد الرحال إلى سورية بعد أن أخذ بقسط وافر

من العلوم الإسلامية والعلوم الفلسفية . انتقل من بلد إلى بلد ومن منطقة إلى أخرى يجتمع بعلمائها ويأخذ عن حكمائها ، وما زال حتى وصل إلى حلب ، يحمل في وفاضه الحكمة والعلم والمعرفة . وما ذاع نبأ وصوله حتى التفت حوله العلماء يناقشونه في فروع العلم المختلفة ، وكأنما شهرته سبقته قبل أن تطأ قدماه أرض الشهباء . وخيل إليه أنه رحل إلى بيثة تنعم بالحرية أكثر مما تنعم به بيثته ، إلى موطن الفكر ليبدع في التفكير الإسلامي آراء ومذاهب جديدة ، وليكتب ويؤلف أكثر مما كتبه وألفه ، فقد بلغت مؤلفاته وهو شاب ، أكثر من ثمانية كتب . وكأنه كان يشعر أنه لم يكتب شيئاً ، وأن حياته العقلية ستبدأ بعد هذه الفترة من سني الشباب ، ولكن أمانيه — ويا للأسف — طارت هباء .

لقد دخل حلب في عام ٥٧٩ هـ . وإذا علمنا أن ولادته كانت سنة ٥٤٩ هـ أدركنا أي فذ هذا الشاب الذي بز العلماء وفاقهم وهو في الثلاثين من عمره . لقد كان فقيهاً وكان فيلسوفاً وكان شاعراً وكان زاهداً وكان أكثر من هذا كله . فمن هذا العبقري الموهوب الذي هابته أئمة العلماء حتى خافت على عقيدة الملك وعقائد الناس ، فطلبت الحكم عليه بالقتل ؟ لا شك أنه ذو مواهب فذة ، وأنه لم يكن

معطلا ولا ملحداً ولا زنديقاً إلى الحد الذي صوره به ،  
بل كان متصوفاً قد ازدري البشر وجاهر بالحقائق العليا التي  
يدين بها كفيلسوف وكفكر وكتصوف معاً . وهذا هو الذي  
جعل أنصاف العلماء ينسبون إليه الزندقة والتعطيل .

\* \* \*

لقد ذكرنا فيما تقدم أن السهروردي نزل المدرسة الحلاوية ،  
وحضر دروس شيخها الشريف افتخار الدين ، وتباحث معه  
الفقهاء من تلاميذ الشيخ وغيرهم ، وناظرهم جميعاً في عدة  
مسائل ، فلم يجاره أحد منهم ، بل ظهر عليهم ، وظهر  
فضله للشيخ افتخار الدين فقرب مجلسه وأدناه ، وعرفت  
مكانته في الناس ، ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء  
وكثر تشنيعهم عليه . فماذا نفهم من هذا ؟ نفهم أن شيخ  
المدرسة الحلاوية كان على جانب كبير من الدراية والعلم ،  
فقد عرف فضل هذا الشاب الغريب وما ينطوي عليه صدره  
من علم ، وما يتميز به من أدب وحكمة وفلسفة ، فأدناه  
من مجلسه ، وسرعان ما نقل أمره إلى السلطان ، فأحب أن  
يعرفه . ولكن السهروردي لم يكن في هذا المظهر الذي يليق  
به أن يقابل الملوك والوزراء ، فقد وصفه المؤرخون وصفاً

زريئاً منكراً ، فقد كان — على حد قولهم — زرى الحلقة ،  
دنس الثياب ، وشخ البدن ، لا يغسل له ثوباً ولا جسماً  
ولا يداً ، ولا يقص ظفراً ولا شعراً . ولم يكتفوا بأن حملوه  
كل هذه الأقدار الدنيوية بل زادوا عليها قولهم : وكان القمل  
يتناثر على وجهه ، ويسعى على ثيابه ، وكل من يراه  
يهرب منه . وما أظن أنه كان في هذه الحالة الزرية ، وهو  
على ما هو عليه من سمو الحكمة وفرط الذكاء . . . ربما  
تغلبت صوفيته على مظهره وهندامه ، ولكن يبدو لي أن  
خصوصه قد صوروه بهذه الصورة الكريهة البشعة ليحولوا  
بينه وبين السلطان . ولكننا وقد عرفنا بعض خصائص الملك  
الظاهر وميله إلى العلماء والحكماء — مهما كان مظهرهم —  
نستطيع أن نجزم بأنه لم يلتفت إلى أقوال البطانة والحساد ،  
بل أخذ برأى الشيخ افتخار الدين ، فاستقبل السهروردي  
في قصره ورحب به أجمل ترحيب ، وما كاد السهروردي  
يفيض في الحديث حتى لمح فيه سمو الحكمة وإشراق الذهن ،  
فقربه وأقبل عليه وتخصص به كما يقول المؤرخون ، مما أدى  
إلى ازدياد غيظ حساده ورميهم إياه بالإلحاد والزندقة .  
ولكن الملك الظاهر لم يلتفت إلى دسائسهم وأكاذيبهم ،  
ولا إلى دنى حيلهم وخسيس مؤامرتهم ، لأنه تحدث إليه



فى أدق الشؤن العقلية والدينية فعرف صفاء عقيدته ونقاء  
طويته فازداد عطفه عليه وإحسانه إليه ، مما جعل حاسديه  
يزدادون غيظاً وتثور ثائرتهم عليه وعلى الملك أيضاً .  
كيف العمل وقد أصبح هذا الزنديق الدخيل صنى  
السلطان ؟

تساءل الفقهاء هذا السؤال فيما بينهم ، ثم قر رأيهم أن  
لا بد من مكيدة تؤدى بحياته .

ويا ويل العلم إذا تألبت عليه جموع الجهل !

ويا لمصيبة الفكر إذا تأمر عليه الجاحدون !

ويا لمصرع الحرية إذا حوربت بجبروت الطغاة المستبدين ! ...

وقد تنادى فقهاء حلب للقضاء على السهروردي العالم  
المفكر الحر . ولا شك أنهم خطبوا على المنابر ، وأثاروا  
ثائرة الجمهور ، واستفزوا شعوره الدينى ، أى أنهم استفزوا  
أدق ناحية حساسة عنده . نعم ، تنادى فقهاء حلب لإنقاذ  
الدين من زنديق متمرد على الدين — كما صوروه للناس ،  
وبهذا الشعور العارم راجعوا السلطان فى أمره . ولكن الملك  
الظاهر بعد أن عرفه وعرف رأيه فى الدين وفى الخالق لم  
يلتفت إلى خزعبلاتهم ولا إلى دسائسهم . وكأنى به قد اعتر  
أن يكون بين علماء مملكته أمثال هذا الحكيم الفيلسوف

الشاب ، فازداد عطفاً عليه وحباً له وإيثاراً على الكثيرين من المقربين إليه . ولما أعيت الفقهاء الحيلة ، وأيقنوا أن صاحب حلب لم يصنع إليهم ، لجأوا إلى أبيه يستفزون عاطفته الدينية . وسيرة صلاح الدين مشهورة بالورع والتقوى ، وببغضه كتب الفلاسفة وأرباب المنطق وكل من يعاند الشريعة . والسهروردى فيلسوف وحكيم ومن رجالات المنطق ، وقد صوروه في صورة معاند الشريعة . ويا ويل من يجسر على أن يعاند الشريعة أو يثير نزعات إلحادية في ذلك العصر الذى يتميز بالطابع الدينى ! إن أقل جزاء له هو القتل . ولما خابت جهود الفقهاء عند صاحب حلب كتبوا إلى أبيه يخبرونه بفساد عقيدة ابنه ، وقالوا : إن صحبته — أى صحبة الملك الظاهر — للسهروردى لم تقتصر على فساد عقيدته بل ستفسد عقائد الناس .

فما هذا البلاء الذى صبه الله على حلب بتزول هذا الزنديق المعطل أرضها ؟

بذلك صرح الفقهاء . ومما جاء فى رسالتهم إلى صلاح الدين هذه الجملة المثيرة : « أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته » . فما كان من صلاح الدين إلا أن كتب إلى ابنه بإيعاده وتفيده . ولكن الملك الظاهر ، وهو عليم بأسرار هذه المأساة ...

التي أجادوا تمثيلها ، لم ينفذ أمر أبيه ، فلم يبعد السهروردي ،  
 وبقي في حلب ، يحيط به الشباب ويحنو عليه الملك ، وكأنه  
 قد خلق في حلب حزبين : حزباً يؤيده وحزباً يناوئه .  
 كان الشباب وعلى رأسهم الملك الظاهر من أنصاره ،  
 وكان الشيوخ وعلى رأسهم السلطان صلاح الدين من خصومه ؛  
 فلمن كانت الغلبة ؟

انقسم الناس قسمين حول هذا الرجل : قسم معه وقسم  
 عليه ، وهذا ما رواه القاضي ابن شداد ، وهو ثقة في  
 هذا الموضوع ، لأنه عاصر الرجل وشهد مأساة هذا الصراع  
 الفكري العنيف ، قال : أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين  
 فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزندقه ، والله أعلم .  
 ومن المؤسف أن يمر القاضي ابن شداد بهذا الصراع  
 ويدون مثل هذه الحقيقة التاريخية التي تنير لنا الكثير من  
 غوامض هذا الصراع دون أن يقول لنا رأيه في الرجل ،  
 وإلى أي جانب كان يميل . وعلى كل فإن اختلاف الناس  
 في أمره وانقسامهم فريقين ، ثم حماية صاحب حلب له ،  
 كل هذا يدلنا دلالة ساطعة على أن السهروردي كالكثيرين  
 من العباقرة الموهوبين الذين يختلف الناس في أمرهم ، ويعتبر  
 هذا الخلاف دليل عظمتهم ونبوغهم .

\* \* \*

ضج العلماء من سلوك الملك الظاهر وتحيزه للرجل الذى كشف جهلهم ، وكان أكثرهم غيظاً وضجيجاً ، وأشدهم نقمة الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا حميد . فما كان منهما إلا أن أثارا ثائرة العلماء فجمعوا جموعهم وتقدموا إلى الظاهر يطلبون بإلحاح إنفاذ أمر أبيه . ويظهر أنهم أخرجوه عند أبيه وعند العامة معاً . ورأى أن خير طريقة للخروج من هذا الإحراج أن يعقد مجلساً للمناظرة فيما هم فيه مختلفون ، واستمهلهم أن يكتب إلى أبيه بذلك . فرضوا بهذا الحل ، وكتب إلى أبيه . ولا شك أنهم كتبوا إلى صلاح الدين أيضاً . ومن المؤسف أن كتب التاريخ لا تحفظ لنا نص هذه الرسائل وهى وثائق ثمينة فى حرية الفكر .

\* \* \*

كتب الظاهر إلى أبيه يقول إنه لا بد من مجلس يعقد للمناظرة قبل أن ينفيه ، فوافق صلاح الدين وعقد المجلس واحتشد العلماء ، وكان السهروردى أشبه بمتهم ، وأية تهمة ؟ تهمة معاندة الشريعة وإفساد العقائد . ولا شك أن جموعاً

كثيرة كانت ترقب الحكم عليه لينتقد الدين من نزعات  
هذا الملحد بعد أن صانه صلاح الدين من هجمات الكفار .

\* \* \*

وناظره العلماء فظهر عليهم .

« قالوا : إنك قلت في بعض تصانيفك : إن الله قادر  
على أن يخلق نبياً . . . وهذا مستحيل .

قال : وما وجه استحالة ؟ فإن الله القادر لا يمتنع  
عليه شيء » .

وتقف كتب التاريخ عند هذا النص ، وما نطن أن المناظرة  
ذارت حول هذه الفقرة فقط ، ولكن من أرخوا له اكتفوا  
بهذا ، وهي كافية لأن يدينوه ؛ وهكذا تداولوا فيما بينهم ،  
وبعد جدال غير طويل حكموا عليه بالكفر وجردوه من  
الإيمان .

ثم كتبوا وثيقة كفره ، وما هي إلا لحظات حتى أذيعت  
على الناس وهي تفتى بقتله .

أين هذه الوثيقة ؟ إن جميع من أرخ للملك الظاهر  
أو للسهروردي لم يورد نصها . واكتفوا جميعهم بالإلاع  
إليها ، وكنا نود أن نقف على تلك الاتهامات التي صاغها

الفقهاء إشباعاً لشهوات حسدهم وتغطية لخدلانهم ، ولكن ما لنا وتلك الحيشيات ، فقد نجحت المؤامرة ورمى السهروردي بالكفر والتعطيل ، وحكم عليه بالموت ، وبلغه ذلك ، كما بلغ الظاهر ما انتهى إليه العلماء ، ولا شك أن الظاهر قد تأثر وجالت الدموع في عينيه ، وأن الفيلسوف الشاب قد أيقن أن منيته قد دنت ، وأن خصومه قد انتصروا عليه بدسائسهم لا بحججهم وبراهينهم . وشاءت إرادة الله الذي لا يمتنع عليه شيء حتى خلق النبوات أن يكون مصرع هذا الحكيم على يد من اصطفاه وفضله على الكثيرين ، فقد انصباع الملك الظاهر إلى فتوى العلماء وصدرت إرادته بتنفيذ الحكم .

ولكن كيف ينفذ الحكم ؟ أيقتل أم يصلب أم يسلم إلى عباد الله المؤمنين يقطعون جسم هذا الكافر الزنديق إرباً إرباً ؟ ! يخيل إلينا أن الملك الظاهر طلب من صديقه الفيلسوف أن يختار ميتة ، فطلب أن يحبس في مكان ما ، ويُمنع الأكل والشرب إلى أن يموت .

وكأنما أراد السهروردي أن يمتحن نفسه ، وأن يحقق نزعاته الصوفية بهذه الميتة التي أرادها له المنتطعون . فحياة الصوفيين لون من العذاب أو هي الفناء في سبيل الحقائق



العليا . وليس أحب إلى نفسه من أن يمتنع عن الأكل وعن الشرب أياماً ، وأن يعيش زاهداً متقشفاً إلى أن يلتقى ربه . وهكذا كان إلى أن فاضت روحه نقية طاهرة .

\* \* \*

لا شك أن صاحب حلب قد حزن حزناً عميقاً لهذه النهاية المؤلمة التي انتهت بها حياة السهروردي .  
وأية ميتة ماتها ؟ !  
في رواية أن الملك الظاهر سجنه ثم خنقه في سجنه بقلعة حلب .

وفي رواية أخرى أن السلطان أمر بقتله وصلبه أياماً ! وعن سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد أنه قال : لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة في العاشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردي ميتاً من الحبس بحلب ففرق عنه أصحابه . نعم ، تفرقوا عنه وقبعوا . في دورهم ينكرون هذا الطغيان الذي مس حرية الفكر ، وانتصر القدماء على المحدثين ، أو قل انتصر الشيوخ على الشباب . ولا شك أن كثيراً من أشياع السهروردي قد بكوه بدموع غزار ورثوه بقصائد تفيض بالحرقة والأنين . ولكن أين تلك القصائد الصادقة ؟

لقد ذهب كما ذهب السهروردى ولم يجسر أحد أن  
يدونها أو يحتفظ بها .

وكان الملك الظاهر فى طليعة من بكاه ، فقد ندم على  
فعلته وحقد كثيراً على من جروه إلى هذا المأزق الحرج الذى  
أودى بحياة شاب من أنبه الشباب وأذكاهم فكراً ودراية وعلماً  
وتجرداً عن الدنيويات ، وشعر بالفراغ الكبير الذى تركه  
مصرع هذا الفيلسوف الحكيم . نعم ، ندم الملك ولكن  
ما عساه يفعل انتقاماً لذكراه ؟ يقول المؤرخون : « إنه نقم على  
جميع من أفتوا بقتله ، فقبض عليهم ونكبهم وصادر جماعة  
منهم بأموال عظيمة » ؛ فهل أرضى بفعلته هذه أنصار  
السهروردى ومريديه ؟ ربما ، ولكن هيهات أن يكون قد  
انتقم للفكر بعمله هذا ، وستظل ميتة السهروردى لطخة  
سوداء فى تاريخ الظاهر الأيوبي على ما امتاز به حكمه من  
حسنات .

\* \* \*

قبل أن ننهى كلامنا عن عالمنا الفيلسوف نريد أن نتساءل :  
هل الدسائس التى تأخذ صبغة الدفاع عن قداسة الدين  
قادرة على إطفاء شعلة الفكر ؟ لقد مر ثمانمائة سنة على

مصرع السهروردى ولكن ذكره فى عالم الفكر لا يزال  
حيًا . . . إن غير واحد من المفكرين المسلمين قد واجهوا  
فى عصور التاريخ مثل هذه الدسائس والمؤامرات التى  
اصطبغت بصبغة الدفاع عن قدسية الدين ، فإذا ذكرنا  
السهروردى فيجب أن لا ننسى التسمية التى يضم رفاتة  
ترابُ حلب أيضاً ، فإن قصة مصرعه لا تقل فى بشاعتها  
عن مصرع السهروردى ، فهذا العالم المتصوف الذى يرقد  
فى الزاوية النسيمية بالقرب من دار بلدية حلب كان كثير  
الجدل مع فقهاء زمنه ، وكثيراً ما تغلب عليهم بحججه الساطعة  
وبراهينه القوية ، فلما أفحمهم احتالوا عليه بالدسائس ،  
وكانت الحيلة : أن كتبوا سورة من سور القرآن فى ورقة ورشوا  
من يخطط النعال أن يدرسها فى طيات النعل ، وقد أوهموه أنها  
« حجاب » محبة وقبول ، فأطاع الرجل ، ووضع الورقة  
وفق طلبهم ، وما إن سلمها لهم حتى أخذوا تلك النعل وأهدوها  
إلى الشيخ من طريق بعيدة ، فلبسها ، وهو لا يشعر بالكيد  
الذى دبر له لأنه مشغول عن ذلك بما هو أسهى ، ثم طلعوا  
لنائب حلب وقالوا له : قد بلغنا من طريق صحيحة أن  
النسيمي كتب « قل هو الله أحد » وجعلها فى أطباق نعله ،  
وإن لم تصدقنا فأرسل وراءه وانظر ذلك ، ففعل ، واستخرجوا

الورقة ، وأدرك الشيخ الحيلة التي لحأ إليها خصومه . عندئذ سلم أمره إلى الله تعالى ولم يجب عن نفسه ، وعلم أنه لا بد أن يقتل ، وكان الأمر كما يتصور . قال الشعراني : وأخبرني بعض تلامذة تلامذته أنه صار ينشئ موشحات في التوحيد وهم يسلخونه حتى نظم خمسمائة بيت ، وكان ينظر إلى الذين يسلخونه وهو يبتسم !

وما لاقاه السهروردي والنسيمي قد لاقاه كثير من المفكرين بوشايات زملائهم من العلماء .

فقد نفي أبو زيد البسطامي سبع مرات من بسطام بوساطة جماعة من علمائها .

وأخرجوا سهل بن عبد الله التستري من بلده إلى البصرة ونسبوه إلى قبائح ، وكفروه مع إمامته وجلاله .

وشهدوا على الجُنَيْد بالكفر مراراً حين كان يتكلم في علم التوحيد على رؤوس الأشهاد ، فلزم عقر بيته إلى أن مات . وشهدوا على الشبلي بالكفر مراراً مع تمام عقله وكثرة مجاهداته ، وأدخلوه البيمارستان مدة طويلة لينفض الناس من حوله .

وأخرجوا أبا بكر النابلسي مع فضله واستقامته في طريقته من المغرب إلى مصر ، وشهدوا عليه بالزندقة عند السلطان ،

فأمر بسلخه منكوساً ، فصار يقرأ القرآن بتدبر وخشوع  
وهم يسلخونه حتى قطع قلوب الناس وكادوا يفتنون به .  
ورموا أبا مدين بالزندقة وأخرجوه من بجاية إلى تلمسان .  
وأخرجوا أبا الحسن الشاذلي من مصر وشهدوا عليه بالزندقة .  
ورموا تاج الدين السبكي بالكفر وشهدوا عليه أنه يقول  
بإباحة الخمر والفاحشة ، وأنه يلبس في الليل الغيار والزمار .  
وأتوا به مغلولاً مقيداً من الشام إلى مصر . وخرج جمال الدين  
الأسيويني فتلقيه من الطريق وحكم بحرق دمه (١) .  
وهناك كثيرون أغفلنا الإلماع إلى ذكرهم لأن هذا لا يدخل  
في حديثنا الذي نريد أن نختمه بالإلماع إلى تراث السهروردي  
الفكري وما تركه من رسائل وكتب ، بل مررنا بذكر أولئك  
الشهداء مروراً سريعاً لعلاقة ذلك بقصة من ذهب ضحية  
الدسائس والمؤامرات في سبيل الحقائق العليا وقداسة التفكير  
الحر .

\* \* \*

ترك السهروردي مؤلفات ورسائل كثيرة ، ومع أنه لم يصل إلى  
السن التي تمكنه من التأليف وكتابة آرائه الحكمية وميوله  
الفلسفية كما كتبها غيره من الحكماء والفلاسفة ، ذكر له

(١) «اليواقيت» للشعراني ص ١٤ و ١٥ .

المؤرخون عدة رسائل وكتب في أغراض شتى . ولولا مصرعه وهو شاب لكان قد ترك للأجيال تراثاً فكرياً ضخماً . ومع ذلك فإن وفرة كتبه الكثيرة المنازع تدل على مواهبه الفذة . فمن مؤلفاته : التلويحات في الحكمة ، والتتقيحات في أصول الفقه ، وحكمة الإشراف ، والغربة الغريبة ، وهياكل النور ، والألواح العبادية ، والمعارج ، واللمحة والمطارحات ، والمقامات ، وغيرها وغيرها ، فأين تلك الكتب ؟ لم يطبع منها غير « هياكل النور » ، وهو كتاب يضم مباحث قصيرة في تعريف الجسم والصورة ، وفي جوهر النفس وتجردها وقواها ، وفيه إشارة إلى ضلال الماديين والرد عليهم وما هناك من فروق بين الروح الحيواني والروح الإنساني ، ثم ردود صريحة على من يتوهم أن النفس هي الباري أو جزء منه ، وغير ذلك من الآراء التي ختمها بفصل عن النبوءات . والآراء بمجموعها صدى للفكرات التي عالجها غير واحد من مفكري العرب وفلاسفة المسلمين . وليس موضوعنا مناقشة ما جاء في هذه الرسالة بل ألمعنا إليها لأنها الأثر الوحيد الذي وصل إلينا من مؤلفاته ، إذ من الصعب جداً أن نتخذ رسالة صغيرة من مؤلفاته أساساً للبحث دون أن نقف على أكثر كتبه . فأين هي ؟ أهى في الخزانات الخاصة أم في المكاتب العامة ؟



وإذا أراد مستشرق أوباحث أن ينشر كتاباً من كتبه أفيسطيع أن يعثر لها على أثر (١) أم أن خصومه وقد ظفروا بهدر دمه قد أحرقوا كتبه ورسائله ؟

لا ندرى ، على أن ما رشح إلينا من كلماته يدل على أنه عالى الفلسفة وكتب فيها المطولات ، فرسالة « الغربية الغربية » مثلاً ، كتبها على نسق رسالة الطير لأبي على بن سينا ، ورسالة « حى بن يقظان » وفيها — على ما يذكر المؤرخون — بلاغة تامة أشار فيها إلى حديث النفس وما يتعلق بها على اصطلاح الحكماء ، فمن كلماته مثلاً :

« نواحى القدس ، دار لا يطؤها القوم الجاهلون .  
« وحد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من  
ملايس الأكوان عريان ، ولو كان فى الوجود شمسان ،  
لانطمست الأركان ، وأبى النظام أن يكون غير ما كان . »

---

(١) فى سنة ١٩٤٥ صدر فى إستامبول عن مطبعة وزارة المعارف مجموعة ضخمة فى الحكمة الإلهية للسهروردى ، وتعد هذه المجموعة التى قامت « هيئة النشرىات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية » بنشرها من أوثق النصوص التى تشرح آراء السهروردى فى الحكمة الإشرافية . وقد تولى تصحيحها المستشرق هـ. كوربين Henry Corbien ولم يصدر له غير هذا الكتاب الثمين ... فأين هى بقية كتبه ورسائله وقد قاربت الخمسين ... هل أحرقها خصومه ؟ لا ندرى ...

وهو في هذا الاتجاه يذهب مذهب الإشراقيين من  
 حكماء الإسلام ومتصوفيهـم - وهو منهم في الطليعة - ومن  
 الصعب أن نأخذ كلمة من كلماته أساساً لبحث آرائه في  
 الفلسفة والإشراق والتصوف وله فيها المصنفات (١) . ولم  
 نقصد من بحثنا هذا أن نكتب دراسة واسعة عن السهروردي  
 وبيان روح فلسفة الإشراق بقدر رغبتنا في تدوين هذه  
 الخطوط السريعة من حياته المليئة بالأحداث .

وإذا وقفنا عند هذا الحد من الإشارة إلى مؤلفاته ، ما  
 بقى منها وما اندثر ، فحسبنا أن نختم كلامنا بالإلماع إلى  
 قصيدته « الحائية » التي بقيت كوثيقة توضح لنا نفسية هذا  
 الصوفي العاشق الذي تدل كل كلمة من كلماتها على معنى

---

(١) وقد أوضح حاجي خليفة في كتابه « كشف الظنون » مقصد  
 السهروردي من حكمة الإشراق بقوله : « إن للدين والفلسفة موضوعاً  
 واحداً ، وهو الخير الأسمى الذي هو فضيلة وسعادة معاً ، ومعرفة هذا الخير  
 الأسمى تتضمن معرفة الله وصفاته وتزويجه ، وإن هذه المعرفة يمكن أن  
 تحصل من طريقتين : أحدهما طريق النظر ، وثانيها طريق الزهد والتصوف  
 والذوق الصوفي ، والذين يسلكون الطريق الثاني ، إذا كانوا يعتقدون  
 الإسلام ، ويستغلون تعاليمه على وجه من أوجه الاستغلال فهم الصوفية ،  
 أما إذا لم يكونوا كذلك ، وكانوا يصطنعون الذوق ويأتون في مذاهبهم بما  
 يتنافى وأحكام الشرع فهم الإشراقيون » .

من تصوفه وروحانيته :

أبدأ تحن إليكم الأرواح  
وقلوب أهل وداكم تشاقتكم  
وارحمنا للعاشقين تكلفوا  
بالسر إن باحوا تباح دماهم  
وإذا هم كتموا تحدث عنهم  
وبدت شواهد للسقام عليهم  
تخفض الجناح لكم وليس عليكم  
فإلى لقاكم نفسه مشتاقة  
عودوا بنور الوصل في غسق الحفا  
صافاهم فصفوا له ، فقلوبهم  
فتمتعوا والوقت طاب بقربهم  
يا صاح ليس على المحب ملامة  
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى  
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها  
ودعاهم داعي الحقائق دعوة  
ركبوا على ستن الوفاء ودمعهم  
والله ما طلبوا الوقوف ببابه  
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم

ووصالكم ربحاؤها والراح  
وإلى لذيذ لقائكم ترتاح  
ستر المحبة والهوى فضاح  
وكذا دماء العاشقين تباح  
عند الوشاة المدمع السفاح  
فيها لمشكل أمرهم إيضاح  
للصبي في خفض الجناح جناح  
وإلى رضاكم طرفه طماح  
فالهجر ليل والوصال صباح  
في نورها المشكاة والمصباح  
راق الشراب ورقى الأقداح  
إن لاح في أفق الوصال صباح  
كما أنهم ، فتمى الغرام فباحوا  
لما دروا أن السماح رباح  
فغدوا بها مستأنسين وراحوا  
بحر ، وحادي شوقهم ملاح  
حتى دعوا وأتاهم المفتاح  
أبدأ فكل زمانهم أفراح

حضر وافغابوا عن شهود ذواتهم  
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم  
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم  
قم يا نديم إلى المدام وهاتها  
من كرم إكرام بدن ديانة  
ونجزم أن للسهروردي ديواناً فقد كما فُقدت مؤلفاته ،

لأن من يكون له هذا النفس العالى فى الشعر لا بد أن  
يكون له أكثر من قصيدة . وكتب الأدب لا تحفظ لنا  
غير هذه القصيدة وبعض مقطوعات تفيض بالركة واللوعة  
والحنين ، فى قصيدة النفس التى جارى فيها ( عينية )  
ابن سينا ألوان زاخرة من الحرمان والشوق :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى  
وتلفتت نحو الديار فشاقتها  
وقفت تسائله فرد جوابها  
فكأنما برق تألق بالحمى  
وفى قصيدته الرائية حيث  
ألوان زاخرة بالتشاؤم والسأم :

أقول بلخارتى والدمع جارى  
ذرىنى أن أسير ولا تنوحى  
ولى عزم الرحيل عن الديار  
فإن الشهب أشرفها السراى

وإني في الظلام رأيت ضوءاً      كأن الليل بدل بالنهار  
إلى كم أجعل الحيات صحبي      إلى كم أجعل التنين جاري  
وأرضي بالإقامة في فلاة      وفي ظلم العناصر أين داري  
ويبدو لي من الزوراء برق      يذكرني بها قرب المزار  
إذا أبصرت ذاك النور أفنى      فما أدري يميني من يساري

نعم إن من يقول هذا الشعر لا بد أن يكون له أكثر من قصيدة تفسر نزعاته كصوفي متجرد ينشد الحقائق العليا — هذه الحقائق التي قادت إلى الهلاك على يد فئة رأوا في هدر دمه إرواء لشهوات دسائسهم . وكم من مفكر ذهب ضحية الدس والجهل والتآمر — بجهل الدساسين وتآمر المتنطعين . وفي قصة مصرعه عبرة وأي عبرة وصورة واضحة مما لاقتة حرية الفكر في القرن السادس الهجري من عنت وضغط وإرهاق نتيجة هذا الصراع الذي قام بين الفقهاء والمتصوفة ، وهو صراع يرجع إلى فجر القرن الرابع حين مر علم الكلام الإسلامي أو علم العقائد بأهم أدوار حياته — وهو دور تحرره من الفقه . ونحن نعلم أن التشاد كان قوياً في ذلك العصر بين الصوفيين والفقهاء ، وكثيراً ما عبر الصوفيون عن احتقارهم لعلم الفقه الذي يسمونه علم الدنيا ، ورأينا الإمام الغزالي في القرن الخامس يجاهر أمام جمهور

المسلمين بأن علم الفقه علم دنيوى لا دينى . وما زالت هذه الآراء فى جذب ودفع بين الفقهاء والصوفيين إلى أن كانت الغلبة للفقهاء فى القرن السادس - وطابع العصر طابع دينى كما أسلفنا - فكان ضحية هذا التنطع الحكيم شهاب الدين السهروردى الذى قضى شهيد الفكر وهو فى ريعان العمر فخسرت الفلسفة الإسلامية مفكراً فذاً من مفكرىها الشباب .

## نهاية وزير في العصر الأيوبي

الحقد السياسي لون من الضغائن الرعناء تتميز به بعض النفوس الضعيفة فلا تكاد تحكم وتسيطر حتى تهيج أهواؤها . وتنشب أظفارها ، وتحرك غرائزها ، فتفتك بخصومها وتتقم منهم دون أن تتقيد بقانون أو يردعها ضمير أو يقف تيارها العاصف وجدان .

وهو — إلى هذا — عامل نفساني يفصح عن أهواء البشر وضلالاتهم المزمنة . وفي تاريخ الثورات والانقلابات مئات الأمثلة على ما تقترفه بعض النفوس من آثام الانتقام التي كثيراً ما تهر على مذابحها الدماء أنهاراً . . . .

ولو رجعنا إلى الحوافز الأساسية لمبدأ الحروب لرأينا شرارتها الأولى قد انبثقت من هذا الداء الدفين الذي يسمونه الحقد ، فينتقل من الأفراد إلى الجماعات إلى الأمم ، فلا يكاد يثور حممه كالبركان حتى تتبناه الدول فتقلب الدنيا الوادعة إلى جحيم محترق .

ولن أسوق في بحثي هذا الأمثال على أدوار الحقد السياسي .



في التاريخ ، فهذا موضوع يطول ، والمصادر عنه أكثر من أن تحدد . ولكن أردت من هذا الإلماع أن أرسم سطوراً واضحة من سيرة رجل لم تكن به الدراسات الحديثة — رجل مر بهذا اللون من الحقد السياسي ، فلم يكذب يصل إلى القمة حتى عصفت به المقادير فانحدر إلى الهوات السحيقة .

وما أكثر المحن السياسية التي يعجز بها تاريخنا — تلك المحن التي لعب فيها الحقد الفردي أكبر دور ، منها ما أبرزته الدراسات ، ومنها ما ظل مطويّاً في بطون الكتب . وأظن أن لا حرج علينا أن نبش أحياناً دفائن الماضي نستجلي سطورَه وننفذ إلى خفائِه ، ولا حرج أن نسرد تاريخ ما أهمله التاريخ ، وأن نرجع القهقري لنقف وقفات طويلة مع من حفل بهم تاريخنا السياسي والأدبي والفكري . والواقع أنه بالرغم من عناية الباحثين بدراسة تاريخنا الضخم ، لا يزال الكثيرون ممن ظهروا على مسرح هذا التاريخ مهملين . ومع وفرة الدراسات الأدبية والتاريخية عن العصرين الجاهلي والإسلامي مثلاً ، وقفت هذه البحوث عند القرن الرابع الهجري إلا قليلاً ، وظل القرنان الخامس والسادس وما يليهما محدودى الدراسة . وإن ما كتب عنهما بالعربية بالنسبة إلى ما كتب عنهما في اللغات الأجنبية المختلفة يبدو ضئيلاً جداً ،

مع أن علاقة الغرب بالشرق قد بدأت منذ هذه العصور —  
تلك العلاقات أو الحروب التي جعلت تاريخ بلادنا يفيض  
بأعنف الأحداث وأخطر الحوادث التي تحتاج إلى تنقيب  
طويل ودراسات شاملة منسجمة لا تزال العربية تفتقدها .

قدمت هذه التوطئة لأجلو حياة رجل من رجال ذلك  
العصر — حياة وزير من أبرز وزراء الدولة الأيوبية ،  
ارتفع شأنه في مصر حتى أصبحت أمور الدولة بين يديه ،  
ولكن ما كاد يحدث الانقلاب السياسي وتنتقل السلطة من  
الفاطميين إلى الأيوبيين حتى أخذ خصمه السياسي يحبك  
له المؤامرات ويدس الدسائس . وما زال حتى نزل به من  
سماوات المجد والسيطرة إلى دركات البؤس والشقاء ... وإذ انتهى  
إلى هذا المصير المحزن ورأى أن حياته أئمن من بريق  
الوزارة ، هجر مصر — وطنه الغالي — إلى حاب ، فاحتضنته  
وكرمته وأغدقت عليه المال والعطايا ، فاتخذها مقراً ، وما زال  
حتى طوته أرضها غريباً عن أهله ووطنه .

فمن هو هذا السياسي المضطهد الذي جعلناه موضع بحثنا  
هذا ؟

هو أسعد بن المهذب الماتى من أهالى أسيوط ، من صعيد  
مصر ، نشأ في بيت من بيوت المجد والوزارة . كان أبوه

المهذب . المعروف بالخطير . مرتباً على ديوان الإقطاعات .  
 وهو على دين النصرانية . واتصل جده المليح بأمير الجيوش  
 بدر الجمالي . وزير مصر في أيام الخليفة المستنصر بالله .  
 أي أن الطفل أسعد . قد نشأ في بيت ارتبط مصير آله  
 بخدمة الدولة . ولم تمنعهم نصرانيتهم أن يسهموا في خدمة  
 الدولة التي كانت تنظر إلى مواطنيها المختلفي الملل والنحل  
 نظر الأب إلى أولاده المختلفي المنازع والأهواء .

واشتراك النصارى في خدمة الدولة وتصريف أمورها من  
 المبادئ السامية التي أقرتها سياسة الخلفاء في صدر الإسلام .  
 وقد عني المهذب بتثقيف ابنه أسعد العناية اللازمة ،  
 فنشأ وقد ألم بثقافة ذلك العصر إلاماً واسعاً ، فكان أديباً  
 وشاعراً وذا مواهب سامية في علم المال ، وهذه هي الصفات  
 التي يجب أن يتسلح بها الفرد آنذاك ليكون مرموق النظر  
 ويحظى بمنصب خطير في سياسة الدولة . وما هي إلا سنوات  
 حتى شب ولمع اسمه ، وأصبح ممن يشار إليهم بالبنان . . .  
 كان القرن السابع الهجري يتسم بالطابع الديني ، وكانت  
 مصر تشهد ميلاد دولة جديدة ، وانتقال الحكم من الفاطميين  
 إلى الأيوبيين . وقد أدرك أبوه المهذب عهد الدولتين ،  
 ولأنه بدأ حياته السياسية بخدمة الفاطميين تخوف من الأيوبيين ،

فلم يكد يدخل أسد الدين شيركوه - عم صلاح الدين -  
أرض مصر حتى أدركه الفزع . كان شيركوه من المتشددين  
فى العصبية ، فخشى المذهب على ماله وعلى روحه من دعاة  
السوء - وما أكثرهم فى كل عصر ! - الذين لا يتورعون  
أن يلصقوا به التهم جزافاً ، وأن يتخذوا نصرانيته وسيلة للإيقاع  
به . وقد يكون هذا وهماً من الأوهام . ولكن ما أكثر ما  
يسيطر الوهم على المنطق فى الساعات الحرجة من فترات  
الثورات والانقلابات ، وعلى كل فقد أحب أن يضحى  
بعقيدته على مذبح السياسة لكيلا يفسح المجال لخصومه أن  
يلعبوا لعبتهم المخطرة . . . يقول ياقوت - وهو يشير إلى هذه  
القصة - إن المذهب جمع أولاده ودخل على السلطان ،  
وأسلموا على يده ، فقبلهم وأحسن إليهم ، وزاد فى ولايتهم ،  
وَجَبَّ الإسلام ما قبله .

إذن فقد أثر المذهب أن يسلم هو وأولاده خوفاً من أن  
تؤثر وشايات المفسدين فيذهب دمه هدرأ ، والعصر آنئذ  
يتسم بالطابع الدينى ، فنشأ الوزير القبطى نشأة إسلامية  
واندمج فى خدمة الأيوبيين كما اندمج أبوه وجده فى خدمة  
الفاطميين ، وأتيح له أن يسيطر على مرافق الدولة سيطرة  
جعلته مرموق النظر ، على المكانة ، لا يضيق به غير

صدر حاسديه ومبغضيه ، وهذا سلاح الضعفاء الذين يعتر بهم الحظ وتكبر بخطواتهم الأيام .

\* \* \*

كان ابن المذهب واسع التفكير ، يفيض قلبه بالحب والخير ، وكانت الإنسانية هي التي توجهه في أعماله دون تفريق بين دين ودين أو بين مذهب ومذهب . نعم ، كانت أعمال الخير والإحسان والبر بالفقراء بعض سجايه ، فقد ورث هذه الخلال عن أبيه وجده . والقصتان اللتان سأرويها عن جده أبي المليح تعطينا صورة صادقة عما كانت تتمتع به هذه الأسرة النصرانية من جاه عريض وذكاء نادر وثروة واسعة ومركز اجتماعي خطير .

أما الأولى فقد ذكر المؤرخون أن مصر دهمها غلاء شديد في عهد المستنصر بالله الفاطمي ( ٤٢٠ هـ ٤٨٧ ) ودام الجوع سبع سنوات ، وقل القوت ، وفكت المجاعة فتكاً ذريعاً بطبقات الشعب حتى بيع الرغيف الواحد بخمسين ديناراً ، وكان أبو المليح جد الوزير أسعد واسع الثروة ، وكانت خزائنه تفيض بالقمح ، فلم يقس قلبه كما تقسو قلوب الأغنياء في عصرنا هذا ، بل كان يوزع القمح على الفقراء ، وكان يتصدق على صغار المسلمين ، فإذا رأوه هتفوا له من

الأعماق وقالوا : مماتى ، مماتى ، فغلب عليه هذا اللقب وعرف به .

أما القصة الثانية التى تدل على ذكائه فقد رواها القفطى قال :

« بلغنى أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ومعه سمكة مصنوعة من عنبر ، قد تنوق<sup>(١)</sup> فيها وأجيدت ، وطيبت ورصعت بالجوهر ، فعرضها على بدر الجمالي لبيعها منه ، فسامها من صاحبها ، فقال : لا أنقصها عن ألف دينار شيئاً<sup>(٢)</sup> . فأعيدت إليه فخرج بها من دار بدر . فقال له أبو المليح : أرى هذه السمكة . فأراه إياها . فقال له : كم رسمت فيها ؟

فقال : لا أنقصها عن ألف دينار درهماً واحداً . فأخذ بيده وقبض ألف دينار من ماله وتركها عنده مدة .

فاتفق أن شرب أبو المليح يوماً وسكر وقال لندمائه : قد اشتهيت سمكاً ، هاتوا المقل والنار حتى نقليه بحضرتنا . فجاءوه بمقل حديد وفحم ، وتركوه فى النار ، وجاء بسمكة

---

(١) أى صنعت صنعة محكمة .

(٢) هذا المبلغ يوازى ما قيمته الآن ٦٠٠ جنيه مصرى بواقع الدينار ٦٠ قرشاً صاغاً حسب تقدير المرحوم الأمير عمر طوسون باشا .

العنبر فتركها في المقل . فجعلت تتقل وتفوح روائحها حتى لم يبق بمصر دار دون أن تدخلها تلك الرائحة . وكان بدر الجمالي جالساً فشم تلك الرائحة وتزايدت . فاستدعى الخزان . وأمرهم أن يفتحوا خزائنه يفتشوها خوفاً من حريق يكون قد وقع فيها . فوجدوا خزائنه سالمة .

فقال : ويحكم ! انظروا ما هذا ؟ .

ففتشوا حتى وقعوا على حقيقة الخبر . فاستعظم الأمر وقال : هذا النصراني الفاعل الصانع ، قد أكل أموالى واستبد بالدنيا دونى ، حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا ؟ ! وتركه إلى الغداة ، فلما دخل عليه وهو مغضب قال له : ويحك ، أستعظم أنا ، وأنا ملك مصر ، شراء سمكة من العنبر فأتركها استكثاراً لثمنها ، فتشترى بها أنت ثم لا يقنعك حتى تقلبها ، وتذهب في ساعة ألف دينار مصرية ! ما فعلت هذا إلا وقد نقلت بيت أموالى إليك ، وفعلت . . . فقال : والله ما فعلت هذا إلا غيرة عليك ومحبة لك ، فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا ، وهذه السمكة لا يشترىها إلا ملك ، فخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشترها ، فأردت أن أعكس الأمر ، وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقاراً . وأنها لم يكن لها عندك



مقدار ، وأن كاتباً نصرانياً من كتابك اشتراها وأحرقها ،  
 فيشيع بذلك ذكرك ويعظم عند الملوك قدرك ، فاستحسن  
 ذلك منه وأمر له بضغفي ثمنها ، وزاد في رزقه (١).

هاتان القصتان — قصة إحسانه إلى فقراء المسلمين في  
 تلك الأيام التي وصل فيها سعر رغيف الخبز إلى خمسين  
 ديناراً ، وقصة بذخه وترفه وحسن تخلصه ونفاذه إلى قلب  
 الأمير ، تدلان على ما كان لهذه الأسرة من المجد الرفيع  
 والسؤدد العريض وما يتمتع به أفرادها من الكياسة والدوق  
 والأدب ، وقد نشأ الوزير أسعد في ظلال هذه المكرمات .  
 إذن كان لمركزه الاجتماعي وثقافته الواسعة ، وثروته الضخمة ،  
 وما عرفت به أسرته من إحسان إلى الفقراء ، وبعد عن  
 العصبية المذهبية والنعرات الطائفية — كل هذه الخصائص  
 هي التي رفعت به إلى مقام الوزراء فوثق به صلاح الدين وأحسن  
 إليه ، وزاد في ولاياته ورفع به إلى أسمى مناصب الدولة .  
 وقد يتساءل بعضهم ماذا كان موقف هذا النصراني الذي  
 أسلم من الحروب الصليبية ؟ أترأه أخلص للدولة التي قلده  
 أرفع مناصبها كما قلدت أباه وجده أرفع المناصب ، وهما على  
 دين النصرانية أم كان إسلامه تقية كما كان إسلام أبيه ؟

أترأه اعتبر نفسه مواطناً يشارك الدولة في سياستها الإسلامية ،  
 أم كان يطمع في حكم المغيرين الذين كانوا يغزون البلاد  
 بروح صليبية ؟ وأخيراً أكان يؤثر الغرب المسيحي على الشرق  
 الإسلامي أم أن هذه الاعتبارات لم تكن لتمر بخاطره ، وأنه  
 كان يرجع في ذلك إلى هواجسه القومية .

الواقع أنه ليس بين أيدينا من النصوص ما يضيء هذه  
 الناحية الدقيقة من دخائل الرجل وطواياه ؛ ولكن اندماجه  
 في كيان الدولة ، وتسنمه أرفع مراتبها ، واعتماد السلطان  
 عليه — كل ذلك يدل على أنه كان يؤثر الناحية القومية على  
 كل اعتبار ديني ، وهذا الذي جعله يمضي في سياسة قومية .  
 وجعل مصر تركز إليه في شؤونها الخطيرة دون أن تنظر إليه  
 نظرها إلى دخيل على دينها الرسمي .

ويظهر أن هذه الاعتبارات التي تشغل هواجس بعض  
 الذين ضاق تفكيرهم في عصرنا هذا ، فخلطوا بين الدين  
 والوطن ، لم تكن بالشكل الذي يفهمه بعض المتزمطين في  
 تلك العصور التي ثارت فيها الحروب بعصبية دينية ، بدليل  
 أن الفاطميين قد استخدموا جده في مركز رفيع ، وهو  
 نصراني ، واستخدم الأيوبيون أباه لا لأنه ترك نصرانيته وأسلم  
 بل للكفايات التي تميز بها هذا البيت . وهذه الكفايات هي

نفسها التي رفعت ابن المهذب إلى أرفع المراتب .

\* \* \*

وكتب الأدب لا تكتفى حين توزخ حياته أن تلمع إليه  
كوزير فقط ، بل تلمع إليه كقاض من قضاة مصر  
الأجلاء ، وتلقبه بالقاضى ابن المكارم . وكانت بينه وبين  
القاضى الفاضل صلوات ود وثيقة ، وصداقة جد متينة .  
يقول ياقوت حين يلمع إلى هذه الصلوات :

« وقد اختص بصحبة القاضى الفاضل ، ونفق عليه<sup>(١)</sup>  
وحظى عنده ، وكرم لديه ، فقام بأمره وأشاع من ذكره ،  
ونبه على فضله ، وصنف له عدة تصانيف باسمه ، وكان  
يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه » .

واهتمام القاضى الفاضل<sup>(٢)</sup> هذا الاهتمام الكبير بابن ممانى ،  
على ما للقاضى الفاضل من مركز رفيع عند صلاح الدين  
الذى كان يعتبره الوزير الأول فى الدولة ويخاطب رجاله  
بقوله : « إني ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم ولكن  
بقلم القاضى الفاضل » — إن اهتمام القاضى الفاضل بالوزير

(١) أى راج عنده أو تفقه عليه .

(٢) عبد الرحيم بن على بن السعيد اللخمي المعروف بالقاضى الفاضل : من  
أهل كتاب ، ولد بعسقلان بفلسطين .

ابن الماتى يدلنا على ما كان يتمتع به من مركز رفيع ومقام سام ، لا فى سياسة الدولة ولا فى المركز الاجتماعى فقط ، بل فى عالم التأليف أيضاً . فقد ضرب فى هذه الناحية بسهم وافر . فآلف فى الدين والفقه : كما آلف فى التاريخ والأدب ، وكان فى جميع هذه الميادين — بالنسبة للمقياس الذى تقاس به ثقافة عصره — الفارس المجلى .

يصف جمال الدين القفطى مؤلفاته بقوله :

وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأديب ، وفى معرض وقائع تجرى . ويعرضها على الأكابر ، لم تكن مفيدة إفادة علمية . إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبى وأضرابه ، فمن ذلك كتاب « تلقين التفتن فى الفقه » و « سر الشعر » و « علم النثر » و « الشئ بالشئ يذكر » ، وقد عرض هذا الكتاب على القاضى الفاضل ، فسماه سلاسل الذهب : لأخذ بعضه برقاب بعض . وكتاب « تهذيب الأفعال لابن ظريف » و « قرقرة الدجاج فى ألفاظ ابن الحجاج » ، وكتاب « الفاشوش فى أحكام قره قوش » و « لطائف الذخيرة لابن بسام » و « ملاذ الأفكار » و « ملاذ الاعتبار » و « سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب » و « أخاير الذخائر » و « كرم النجار فى حفظ الجار » و « ترجمان الجمان » و « مذاهب المواهب »

و « باعث الجلود عند حادث الولد » و « الحض على الرضا  
بالحظ » و « زواهر الصدف وجواهر الصدف » و « قرص العتاب  
ودرة التاج » و « ميسور النقد » و « المنتخل » و « أعلام النصر »  
و « خصائص المعرفة في المعميات » .

نعم ، فقد ضرب ابن المماتي بسهم وافر في التأليف في  
ميادين المعرفة المتنوعة : فكتب في الفقه واللغة والتاريخ  
والأدب . . . ولا نعلم ما حفظته لنا الأيام من هذه الكتب .  
ومن حقنا أن نتساءل أين هذه الكتب ؟ ومن المؤسف أن  
نقول : إن أكثرها مفقود . وقد طبع له أخيراً كتاب « قوانين  
الدواوين » طبعته الجمعية الزراعية الملكية بإشارة من صاحب  
السمو المغفور له عمر طوسون باشا الذي اعتبره وثيقة من  
أهم الوثائق عن حالة الزراعة ونظم الدواوين المصرية في عصر  
الدولة الأيوبية التي لم يصلنا عنها إلا التزر اليسير<sup>(١)</sup> ، بل  
اعتبره من وثائق الطراز الأول ، وهو على اختصاره وعدم  
إمعانه في استعراض المسائل مفصلة كل التفصيل ، يحمل  
كثيراً من الصفات التي امتاز بها ذلك النوع المعروف من  
الموسوعات العظيمة التي ظهرت في العصور الوسطى الإسلامية<sup>(٢)</sup> .

(١) مقدمة كتاب قوانين الدواوين ص ٧

(٢) مقدمة كتاب قوانين الدواوين ص ٧

وحين يلمع القاضى الفاضل إلى تصانيفه يمتدحها ويخص منها بعض الكتب ذات الأثر فى نفس صلاح الدين وسياسته فى الدولة فيقول :

وصنف عدة مصنفات منها : تلقين اليقين فى الكلام عن حديث « بنى الإسلام على خمس » ، وكتاب حجة الحق على الخلق فى التحذير من سوء عاقبة الظلم وهو كبير ، وكان صلاح الدين يكثر النظر فيه ، وعقب القاضى الفاضل على هذا الكلام بقوله :

« وقفت من الكتب على ما لا تحصى عدته فما رأيت والله كتاباً يكون قبالة باب منه ، وإنه والله من أهم ما طالعه الملوك . » ثم يشير إلى كتاب « قوانين الدواوين » ، الذى صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجرى فيها وهو أربعة أجزاء ضخمة . والذى يقع فى أيدي الناس جزء واحد اختصره منه ، غير المصنف ، فإن ابن ممتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساخة كل ضيعة ، وقانون رباها ، ومتحصلها من عين وغلة ، كما نظم سيرة صلاح الدين يوسف ، ونظم كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر لم تحفظ منه كتب الأدب غير مقطوعات وقصائد كقوله :

قد نهانا عن الغرام منها  
وهجرنا الحبيب خيفة أن يه  
وأنسنا من وحشة بفراق  
وسمعنا من العذول كلاماً  
أى خير يكون فى حب من فو  
نحن لو لم نكن هجرناه من قب  
شيمة فى الملاح قد أحسن الده  
وصباح المشيب يظهر ما كا  
ما مشينا إلى الصبابة إلا  
فأدركها معسجدات كؤوساً  
وشعره وإن لم يكن من هذا النوع الذى يجعلك تضعه  
فى الدرجة الأولى أو الثانية من طبقة فحول الشعراء - فهو  
إلى شعر الانحطاط أقرب - إلا أنه يؤرخ ناجية من الحياة  
الأدبية لذلك العصر . . .

والشئ الذى يلفت النظر هو إقدام ابن الماتى على التأليف  
فى نواحي المعرفة المختلفة فى الأدب والشعر واللغة والدين والفقه  
والسياسة والاقتصاد - وهذا الذى رفعه إلى رتبة الوزارة وجعل  
الدولة تنيط به أكبر المراكز وتطلق يده فى أدق الشؤون  
بصرفها بوسع علمه وحنكته ودرايته .



قلد أسعد ابن المهذب ديوان الجيش ، وقد ورت هذا المنصب عن أبيه فتصدر به مدة طويلة . ثم أضيف إليه ديوان المال ، الذى يعتبر فى كل عصر من أهم الدواوين ، أى أن مالية الدولة والدفاع عن كيانها قد نيطا به ، فجمع إلى وزارة المال وزارة الدفاع واحتفظ بهما حتى أوائل سلطنة العادل حين أفل نجمه مما سنشير إليه فيما بعد .

يصف ياقوت الرومى هذا الرجل بقوله :

« أحد الرؤساء الأعيان الجلة ، والكتاب الكبراء المنزلة . ومن تصرف بالأعمال . وولى رياسة الديوان ، وله أدب بارع ، ونخاطر وقاد مسارع ، وقد صنف فى الأدب ، وأصله من نصارى أسيوط ، قدموا مصر ، وخدموا وتقدموا . وولوا الولايات ، وهو مع ذلك من أهل بيت فى الكتابة عريق . وهو كالمستولى على الديار المصرية ، ليس على يده يد ، والمسمون بالخلافة محجوبون ، ليس لهم غير السكة والخطبة ، وكان إلى مماتى كثير من الأعمال » .

وقال ابن خلكان :

« هو القاضى الأسعد ، أبو المكارم أسعد بن الخطير ، الكاتب الشاعر ، وكان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، وفيه فضائل ، وله مصنفات عديدة ، ونظم سيرة صلاح .

الدين - رحمه الله - ونظم كتاب كلية ودمنة ، وله ديوان شعر ، رأيت بخطه . « ونقلت منه مقاطيع . » وترجم له العيني في « عقد الجمان » والسيوطي في « حسن المحاضرة » والزبيدي في « تاج العروس » والمقرئزي في « الخطط » ، ولم يتوسع أحد من هؤلاء المؤرخين بسرد تاريخ حياته . وظل ياقوت أوسع من ترجم له في هذا الباب وإن اتفقوا جميعاً على أنه شغل أرفع المناصب في الدولة الأيوبية ، وكان إلى هذا كاتباً شاعراً مؤرخاً ألف وصنف ، وكان ذا مركز اجتماعي مرموق .

\* \* \*

هذا المركز السامي الذي وصل إليه بأدبه وذكائه وإخلاصه ، هو الذي ألب عليه الخصوم فكر حاسدوه ومبغضوه ، وكثر الدس عليه ، فلقى كل عنت ورمي بالوشايات ، ووضعت في طريقه العثرات ، شأن كل من تكون له يد عليا في تصريف شؤون الدولة ، ولكنه تخطى كل ذلك دون أن يهتم بوشايات الواشين ، وكيد الحاسدين ، فمدحه الشعراء وهجوه ، ولم يتورع بعضهم أن يتخذ دينه الجديداً وسيلة لغمره ، فقال المذهب بن الخيمي :

وحديث الإسلام ، واهي الحديث

باسم الثغر عن ضمير خيث

لو رأى بعض شعره سيويه

زاده فى علامة التأنيث

ولكنه كان أرفع من أن يهتم بهذه الترهات ، كان يلقى  
نخصومه بصدر رحب وابتسامة ناعمة شأن أكثر السياسيين  
الذين يعيشون حياتهم فى الالتواء .

كان مركزه فى عهد صلاح الدين وطيداً ، ولكن لم يكد  
الملك العادل أبو بكر بن أيوب — شقيق صلاح الدين —  
يملك الديار المصرية . حتى انقلبت الدنيا فى وجه ابن المائى  
وشعر من الأعماق أن نهايته قد دنت . وقد تنبأ أبوه بهذه  
النهاية المحزنة حين أخرج من ديوانه فى قصر السلطان ،  
وألمعت كتب الأدب إلى هذه القصة بما يلى :

« ومن عجيب ما جرى للخطير ، أنه كان يوماً جالساً

فى ديوانه فى حجرة موسومة بديوان الجيش من قصر السلطان  
بمصر ، وكانت حجرة حسنة مرخمة منمقة ، فجاءه قوم  
وقالوا له : قم من هنا . فقال لهم : ما الخير ؟ فقالوا : قد  
تقدم الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأخذ رخام هذه  
الحجرة ، وأن يعمر به موضعاً آخر . فخرج منكسراً كاسفاً ،  
فقليل له فى ذلك فقال : لقد استجيت فينا دعوة ، وما  
أظننى أجلس فى ديوان ، أما سمعتم أنه إذا بالغوا فى الدعاء

علينا قالوا : خرب الله ديوانه ، وما بعد الخراب إلا الباب .  
ثم دخل منزله وحمل ، فلم يخرج منه إلا ميتاً<sup>(١)</sup> .  
لا شك أن ميتته كانت إثر هذا الكبت الذى ضاق به  
صدره من تقلص سلطته فى ديوان الجيش بعد أن انتقل من  
يد صلاح الدين إلى يد الملك العادل .

أما قصة الابن الوزير أسعد فهى أدهى وأمر .  
والواقع أن الخصومة لم تكن بينه وبين الملك العادل بل  
بينه وبين وزيره صفى الدين بن شكر . . . فقد كانت  
بينهما ضغائن وأحقاد يوم كانت السلطة بيد ابن المماتى ،  
فلما جاءت الفرصة المواتية لابن شكر لم يتردد فى أن يبطش  
بخصمه اللدود أشد البطش . . . ولكن كيف ينتقم ولا يزال  
ابن المماتى يتمتع بمركز رفيع حتى عند الملك العادل ، عمد  
إلى الدس والمكيدة ، فصانعه وحامله ، وأبقاه فى مركزه ،  
بل ناط به الكثير من الأعمال ، ولم تكن هذه المجاملة  
خالية من شوائب الحقد ، فقد استبقاه فى مركزه ليوقع به ،  
كان يدبر له المؤامرات ويحيك الدسائس فى الخفاء ، فقد  
ألب الناس عليه ، وبدأت القصص تخلق والروايات تروى  
عن جهله وحمقه ، بل تعدى هذا إلى الطعن فى أمانته

وكرامته . . . ماذا ؟ كان لا يذكر اسمه بالأمس إلا مشفوعاً  
 بالتجلة والتكريم فأصبح مضغة في أفواه الناس . . . ما أغرب  
 طباع البشر : إن الناس لا تؤمن إلا بالقوة والسيطرة ، فلا  
 يكاد الرجل يضعف ويتخاذل حتى يلوون وجوههم عنه .  
 ولا يتورعون — إذا سقط — أن يدوسوه . كانوا بالأمس  
 يحنون ظهورهم احتراماً له وتبجيلاً لقدره وعلمه ، ويتقربون  
 إليه . يكيلون له المدح والثناء ، فأصبح نكرة من النكرات ،  
 بل أصبحت التهم توجه إليه كأنه لص من اللصوص . . . أصبح  
 هذا الوزير مديناً ، وأقبل الناس يطالبونه بالحق وبالباطل ،  
 أين ثروته ؟ أين دوره وقصوره ؟ أين هذه الغلال التي  
 كانت توزع من بيت أبيه وجده في ساعات الشدة على  
 الفقراء ؟ كيف دار به الزمن ؟ كيف انقلبت عليه الناس ؟  
 أين أصدقائه ؟ أين أنصاره ؟ أين حاشيته ؟ لم يعد يرى  
 أحداً ، فقد ابتلعهم دنيا الغدر وغاض من وجوههم ماء  
 الحياء . . .

ماذا ؟ . . . لقد استطاع ابن شكر خصمه السياسي  
 أن يجعله مديناً ، وأن يضع كرامته موضع الاتهام . وليس  
 أبلغ في الضغينة من الحقد الذي يتأكل صدور بعض الرجال  
 الذين تستبد بهم شهوات الحكم فيلجأون إلى أحسن الوسائل

لانتقام من خصومهم الأقوياء . . . .  
ولنسمع الآن كيف تروى كتب الأدب . هذه القصة  
المشجية التي نقرأ بين سطورها الوفاء المبطن بالغدر . واليد  
الناعمة التي لا تكاد تصافح حتى تطعن بخنجر مسموم .  
نعم . لنسمع قصة الغدر يرويها الوزير نفسه . فقد ذكرنا  
آنفاً أن ابن شكر لم يجسر على الإيقاع به حين تسلم  
الحكم « بل فوض إليه جميع الدواوين » التي كانت باسمه  
قديمًا . وبقي على ذلك سنة كاملة . ثم عمل له المؤامرات ،  
ووضع عليه المحالات ، وأكثر في التأويلات ، ولم يلتفت  
إلى أعداره ، ولا أعاره طرفاً لاعتذاره . فنكبه نكبة قبيحة .  
ووجه عليه أموالاً كثيرة ، وطالبه بها ، فلم يكن له وجه .  
لأنه كان عفيفاً ذا مروءة ، فأحال عليه الأجناد ، فقصدوه  
وطالبوه وأكثروا عليه وآذوه . واشتكوه إلى ابن شكر ،  
فحكمهم فيه (١) ، وكأنما لا علم له بهذه المؤامرة التي  
حاكتها يداه الأثيمتان ، وإذ عجز عن تخصيص أموال  
الدائنين حكم الأجناد فيه يطالبونه بالقوة وحرّض الرعاع  
وحثالات البشر يتطاولون على رجل كانت يده مقاليد  
مصر . . . .

والآن فلنستمع إلى قصته يرويها بقلب مضطرب بأثس  
ونفس جزعة مكلومة قال :

« علفت في المطالبة على باب دارى بمصر ، على ظهر  
الطريق في يوم واحد : أحد عشرة مرة ، فلما رأوا أننى  
لا وجه لى قيل تحيل : ونجم هذا المال عليك في نجوم  
فقلت : أما المال فلا وجه له عندى ، ولكن إن أطلقت  
وملكت نفسى ، استجديت من الناس ، وسألت من يخافنى  
ويرجونى ، فلعلنى أن أحصل من هذا الوجه ، فأما من  
وجه حاصل فليس لى بغد ما أخذتموه منى درهم واحد ،  
فنجم المال على ، أى قسط ، وأطلقت وبقيت مديدة - أى  
مدة قصيرة - إلى أن حل بعض نجم المال على فاخفيت  
واستترت وقصدت القرافة - أى المقبرة - وأخفيت نفسى  
فى مقبرة الماذرائيين . وأقمت بها مدة عام كامل وضاق  
الأمر على . فهربت قاصداً الشام ، على اجتهاد من الأستاذ ،  
فلحقنى فى بعض الطريق فارس مجد ، فسلم على ، وسلم  
إلى مكتوباً ، ففضضته وإذا هو من الصنى بن شكر ،  
يذكر فيه : لا تحسب أن اختفاءك عنى كان بحيث  
لا أدرى أين أنت ؟ ولا أين مكانك فاعلم أن أخبارك  
كانت تأتىنى يوماً يوماً ، وأنت كنت فى قبور الماذرائيين



بالقرافة ، منذ يوم كذا ، وأنتى اجتزت هناك ، واطلعت  
 فرأيتك بعينى : وأنتك لما خرجت هارباً عرفت خبرك ولو  
 أردت ردك لفعلت . ولو علمت أنك قد بقى لك مال  
 أو حال لما تركتك . ولم يكن ذنبك عندى مما يبلغ أن أتلف  
 معه نفسك ، وإنما كان مقصودى أن أدعك تعيش  
 خائفاً فقيراً ، غريباً مسحجاً - أى مشرداً - فى البلاد ،  
 فلا تظن بأنك هربت منى بمكيدة صحت لك على ، فاذهب  
 إلى غير دعة الله . قال : وتركنى القاصد وعاد ، فبقيت  
 مبهوتاً إلى أن وصلت إلى حلب .

تصوروا أية نهاية محزنة وصل إليها هذا الرجل ! كان  
 ذا مال كثير وجاه عريض وعلم واسع وسمعة طيبة - تصوروا  
 وزيراً كانت بيده مقاليد مصر اضطره خصمه السياسى إلى  
 الانزواء فى المقابر ، لم يشفع له مركزه ولا ثروته ولا جاهه  
 ولا علمه ولا خدماته لوطنه . فأزيع من مركزه وأخرج من  
 قصره ، وجرد من ماله وحبس ، وسلط عليه رعاع الناس  
 وتناول عليه الأجناد القساة فأذوه وأثقلوا عليه ، وإذا ضباق  
 بهذه الحالة المزرية طلب أن يطلق سراحه ليستجدى ويسدد  
 ما عليه ! يا للشهوات كيف تنحدر ببعض النفوس إلى  
 إذلال الخصوم السياسيين إذلالاً منكراً لا تغتفره الأيام ! . . .

نعم . أصبح وزير صلاح الدين طريد النعم . وحالت  
 حاله من حياة البذخ والترف في عاليات القصور إلى حياة  
 الفاقة والبؤس في موحشات القبور — حياة يفضلها الموت .  
 هذا الوزير الذي أحرق جده سمكة من العنبر بألف دينار  
 تلبية لهواه بعد سكرة طارئة أصبح يفر من دائنيه الموهومين .  
 ويختفي في المقابر . كان خصمه يعلم بمخبرته . وقد تركه  
 سنة كاملة . يعيش عيشة الخوف والهواجس والحرامان .  
 ولما شفى غلته من إذلاله ، آمن عليه بالحرب ، ولم يترك له  
 التعم بهذه اللذة أيضاً ، بل أفهمه — وهذا منتهى الصغار —  
 أنه كان على علم بمخبرته ، وبغزبه على الحرب ، وأنه كان  
 يحيطه بنطاق واسع من عيونه وجواسيسه ، وكان يمر به من  
 حين لآخر ليطمئن على أنه يعيش عيشة الخائفين الخذرين  
 في المقابر . أما وقد اطمأن إلى أنه لم يبق لديه مال ولا حال ،  
 فليذهب في بلاد الله الواسعة ، وليصارع الأهوال ، بعيداً  
 عن أرض الوطن ، يستجدي اللقمة استجداء ، ويعيش في  
 دنيا العوز ، والفقر والتشرد . . .

لقد انتصر الحق ، وخذلت النفس . إن السياسة  
 لا ترحم ! . . .

من مصر إلى حلب : ما أبعد المسافة ! رجل في الستين من عمره ، وقد عاش في رفيف النعم يخرج من وطنه مشرداً وقد هدته هذه النكبة الكبرى ، وما زال يقطع الفيافي والقفار وينتقل من بلد إلى بلد ، ومن جبل إلى سهل ، ومن سهل إلى حزن ، وما زال على شيخوخته يصارع الأهوال ويعاني عذاب السفر حتى وصل إلى حلب ، وكأنما أراد - وحلب في حوزة الملك الظاهر بن صلاح الدين - أن يختتم حياته في هذا البيت الكريم . وإذا كانت صلته بالوزير الجليل جمال الدين الأكرم على بن يوسف القفطى ، فقد قصده فرحب به الوزير القفطى أجمل ترحيب وأخذه ضيفاً عليه ، وأقام عنده مدة . وعلم الملك الظاهر بمقدمه وبقصته فعطف عليه وأكرمه ، وخصص له راتباً ، كل يوم ديناراً صورياً وثلاثة دنانير أخرى أجرة دار ، وكان يصل إليه كل ثلاثة أشهر ثلاثون ديناراً غير بر وألطاف - أى صلوات وصدقات - ما كان يخليه منها ، وأقام عنده حتى آخر حياته . . . .

وقد أثر به هذا التكريم ونزلت هذه الحفاوة من نفسه منزلة كريمة ، فنسى - أو كاد - ألم النكبة ، وكانت حلب في عهد الملك الظاهر معمورة بالعلماء والأمراء

والفضلاء ، مؤرخين وأدباء وشعراء كادوا يعيدون عهد بلاط سيف الدولة ، فكانت تعقد الحلقات الأدبية والمناظرات العلمية في قاعة الظاهر - القاعة الكبرى التي تجثم في قلب القلعة ، أو في قصر صديقه الوزير القفطى أو في المدرسة الحلوية . . . وقد اندمج الوزير أسعد المائى ، المضطهد السياسى ، بهذا الوسط العلمى فنظم وكتب ، وأتيح له وهو فى منفاه أن يضم إلى سلسلة مؤلفاته كتاباً جديداً سماه «كرم النجار فى حفظ الجار» عمله للملك الظاهر ، ولا شك أنه قص فيه بأسلوب حزين مؤثر قصة فراره . وكم يؤلمنا أن لا نعرف أين هذا الكتاب .

إذن ، لم تخل حياة ابن المائى من العمل الأدبى فكتب ونظم ، وكان خفيف الظل عذب الروح تجرى النكتة الحادة على لسانه فتعمل أثرها ، وقد ذكر له صديقه القفطى عدة نوادر هنا مجال ذكرها . . .

لقد أحب حلب ، ونزلت من نفسه منزلة طيبة ، وراقه منها شتاؤها . . . كيف ؟ هنا موضع العجب ، رجل فى الستين من عمره ، أى فى هذه السن التى تؤثر فيها لفحات البرد ، ينتقل من جو مصر الدافئ إلى جو حلب القارس . . . فما الذى أحبه من شتاها ؟ أحب مدينة سيف الدولة وهى

مغمورة بالثلج ، وهو منظر غير مألوف للمصري ، ولا سيما  
 في ذلك العصر حيث لم تكن الأسباب ميسورة للسفر إلى  
 البلدان التي تكثر فيها الثلوج . . . ماذا ؟ كيف تبسم السماء  
 عن الياسمين . ، كيف يستحيل الليل أبيض كالصباح .  
 ماذا ؟ أحباب الحميا أم ثغور الملاح ؟ إنه يرى حلب -  
 هذه العروس الحسنة قد لبست كل ما تتجمل به العروس  
 من حلى ، ففاض قلبه بالشعر ، وكتب قصائد ومقطوعات  
 كثيرة وصف فيها حلب وقد لبست هذا الثوب الجميل من  
 الأقاح والياسمين :

ج ساقطاً كالأقاحى	لما رأت عيني الثلج
ه أبيضاً كالصباح	وصار ليل الثرى منه
ب در عقد الوشاح	حسبت ذلك من ذو
أو من ثغور الملاح	أو من حباب الحميا
ر بعد ذا من جناح	فما على داخل النسا

وما كان الشعر غايته ، بل كان ينفس هواجسه كيفما  
 اتفق - والعصر بدء عصر الانحطاط في اللغة والشعر -  
 وهكذا ، فقد ظل يلهو بوصف الثلج ويمدح الملك ، ويتنادر مع  
 أصحابه ، ويشغل نفسه بالقراءة والتأليف بغية نسيان نكبته ،  
 ولكن هيهات ، فقد ظل في لوعة ووجد وفي حرقة وكمد

حتى الثامن عشر من جمادى الأولى . سنة ست وستائة :  
 حيث وافاه القدر فدفن بظاهر حلب بالقرب من قبر  
 الهروى ، فكان لموته رنة حزن عميقة فى جميع الأوساط حيث  
 مشت حلب كلها فى جنازته تودع فيها العلم والفضل والأدب .  
 نعم ، كان لموته رنة حزن عميقة ، وأى حزن أوقع فى النفس  
 من موت الغريب ولا سيما إذا كان فى مركز رجله كالذى  
 تحدثنا عنه . . . .

هذه هى نهاية هذا الوزير المنسى الذى ذهب فريسة  
 الحقد السياسى ، بعيداً عن أهله ووطنه .

على هامش الصراع بين الأخوين : الأمين والمأمون

## فتنة بغداد

قصيدة منسية للشاعر الأعمى

تميزت النهضة الأدبية المعاصرة بهذه الدراسات التي حاولها الباحثون عن أدبائنا وشعرائنا منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا هذا . ويلاحظ المتعمق في دراسة الأدب العربي القديم أن بعض الشعراء قد أهملوا ولم ينالوا العناية التي نالها زملاؤهم . والشعراء منهم من يطوى وهو حي ، ومنهم من ينشر وهو ميت ، فمن أي فئة هذا الشاعر المنسى .

لقد حاولت السياسة أن تطويه وهو حي ، وها هي ذي محاولة أدبية لبعث ذكره وهو ميت . كان من خصوم السلطان فتعرض لما يتعرض له كل مفكر يروج برأيه ، ويعلن عن ميوله وهو واجسه ، فطمست السياسة ذكره وحاولت أن تطمس أدبه .



وجناية السياسة على الأدب مما تعرفه كل العصور وكل الأمم ، ولكن لا تلبث تلك البثور أن تتلاشى ويظل الأدب قوى المظهر ، قوى الطابع ، لا تؤثر فيه العواطف مهما ثارت وحاولت أن تقلل من روائه وجماله .

ويظهر أن شاعرنا هذا كان من خصوم كل سلطة تميل مع القوى ، فكان من البديهي أن تناوئه السياسة . وأن لا يجسر أحد من أدباء عصره الذين اشتغلوا بالتدوين أن يخصصه بدراسة أو يبحث أو أن يعرضوا إلى ذكره بالتطويل . فضاع شعره أو ضاع أكثره ولم يبق منه إلا التزر اليسير ، على أن ما وصل إلينا منه يدل على أن الشاعر كان جياش العاطفة ، صادق الإحساس ، قوى التصوير ، وكان إلى هذا ناقداً لاذعاً ، كثير التهكم ، كثير الهزء والسخرية ، لا يداور في معارضة ولا يخشى أن يناله أذى أو يمسه ضرر ، فقد كان من هؤلاء الشعراء السياسيين الذين يناصبون خصومهم العداء بقوة وإيمان دون أن يحسبوا حساباً ما للاضطهاد الذى يتزل بهم .

وبعد فمن هو هذا الشاعر المنسى ؟ إن أخباره المبصرة مبثورة هنا وهناك فى كتبنا الأدبية والتاريخية ، غير أن الأدباء المعاصرين قد أهملوه مع أنه يستحق أن يفضل على

الكثيرين من الشعراء الذين درس شعرهم ودرست حياتهم ،  
ونالوا أوفى رعاية من مباحث الكتاب وعنايتهم .

\* \* \*

شاعرنا المنسى هذا ، هو الخريمى أو الخزيمى ، أو  
الشاعر الأعمى - وفي رواية الأعور - واسمه إسحق يعقوب ،  
عاش في عصر الرشيد واتصل بمحمد بن منصور بن زياد  
كاتب البرامكة ، وشهد هذا الصراع العنيف الذى قام بين  
الأمين والمأمون ، كما شهد هذه الثورات العاصفة التى أثارها  
الشعوبية من جهة والعصبيات من جهة ثانية ، ومطامع  
القواد من جهة ثالثة ، فكان له رأى جاهر به ، فأوغر  
عليه صدر السلطان ، فقد سجل في شعر بليغ ثورة بغداد  
حين وقعت فريسة المطامع والشهوات فكان من أبلغ الشعراء  
الذين عرضوا لوصف مظاهر الفتنة ، فاستطاع أن يجمع  
بين « الموضوعية » و « الذاتية » في شعر رصين يمتاز إلى  
سهولته بالقوة وبرسم صور نفسية تدمع العين ونهر النفس  
هزاً .

\* \* \*

ومن المؤسف أن لا تعرض له كتبنا الأدبية بما يشفى  
الغليل ، فقد رجعت إلى الأغاني ، وإلى البيان والتبيين ،

وإلى الكامل وإلى الأمالي ، وإلى معجم الأدباء ، فإذا  
جميعها تذكره في سطور مستشهدة ببعض مقطوعات من  
شعره . على أن المؤرخ الطبرى قد استغل شعره السياسى  
فى وصف فتنة بغداد فنشر قصيدته الكبرى ، وهى لون من  
شعر الملاحم ، تدل دلالة بليغة على شاعرية الشاعر ،  
وصدق إحساسه ودقة تصويره ، مع أنفته وكبريائه ،  
وخصومته السياسية ونزعته الإنسانية معاً ، وهذه القصيدة فى  
أكبر من مائة بيت ، وهى سهلة واضحة ، قوية السبك ،  
مشرقة اللفظ ، ذات جرس موسيقى . وهى إلى سهولتها وإلى  
عذوبتها وإلى جمالها الفنى لا بد لفهمها من الرجوع إلى هذه  
البحوث التى كتبها المؤرخون عن الخلاف بين الأخوين الأمين  
والمأمون وصراعهما الدامى فى سبيل الملك .

\* \* \*

كيف استوى الأمين على دست الخلافة ؟  
كيف لعبت السياسة دورها فأوغرت صدر الأخ على  
أخيه ؟

ثم كيف مدت البطانة شباكه فزينت للأمين أن ينكث  
عهد أبيه ويجعل ولاية العهد من بعده لابنه موسى ؟  
وكيف مهدت للمأمون أن يقابل الشر بالشر وأن يجعل

الخلافة من حقه ؟

ثم كيف قامت الاضطرابات والثورات والفتن ؟ من ثورة  
الجند والقواد على الأمين مطالبينه بالمال والأرزاق ، بعد أن  
ضعف سلطانه بمقتل قائده على بن عيسى ، إلى هذه  
الخصومة العنيفة بين قواد المأمون ووزرائه — بين طاهر  
ابن الحسين والفضل بن سهل وأتباعهما ، إلى هذه الفتن  
التي قامت ببغداد والتي ظلت أشهراً عدة نشطت خلالها  
عصابات اللصوص وشراذمة الصعاليك ، فكان النهب وكان  
السلب حتى طغى سيل غاراتهم على تلك المدينة المنكودة .  
نعم لا بد لمن يريد أن يتفهم قصيدة الحريري في نكبة  
بغداد من أن يرجع لهذه النصوص التاريخية قليلاً . ولست  
أريد أن أقول إن القصيدة من الغموض بحيث تدق معانيها  
على فهم القارئ ، فهي سهلة كل السهولة ، واضحة كل  
الوضوح ، ولكن الرجوع إلى حوادث التاريخ يجعلك أكثر  
فهماً لروح الشاعر ، وأكثر إيماناً بشاعريته ، فقد شهد  
الحريري الحروب الكلامية والحروب الدموية التي تقدمت  
تسلم المأمون صوب لجان الملك ، وشهد اندلاع الثورة في بغداد  
وفي أطراف بغداد ، وكيف أغار الرجاج والجنود المرتزقة على  
العاصمة يهبونها ويهدمون قصورها ، ويستبيحون حرمانها

ويعتدون على نساءها ، فكان من أبلغ الشعراء العباسيين الذين وصفوا هذه المآسى أدق وصف وأبلغه ، ومن يدري ؟ فقد يكون الحريمى من أنصار المأمون ، وقد يكون ممن ينتمى إلى أحد هذه المذاهب والفرق التى كافحها الأمين ، وقد تكون النزعة الإنسانية هى التى أوحى إليه أن يصور تلك الفواجع وأن يرسم تلك النبرات الحزينة . كل هذا جائز وهذا ما سنتبينه من سجوف هذه الصور التى تضمنتها القصيدة .

\* \* \*

أحب الرشيد قبل أن تدنو منيته أن يوطد دعائم الملك لولديه الأمين والمأمون ، ولكن وازعاً نفسياً كان يقول له إن خلافاً سينشب بين الأخوين على الملك . والقصة التى يرويها المسعودى فى تاريخه « مروج الذهب » تنبئ عن ذلك ، فقد مثل الأمين والمأمون فى يوم ما ، بين يدى الرشيد ، وكان عنده الكسائى فطلب إليه أن يمتحنهما فامتحن الكسائى ذكاءهما وأدبهما وذرايتهما ، فما كان منه إلا أن وصفهما بقوله :

« أرى قمرى مجد وفرعى خلافة يزنيهما عرق كريم ومحتد  
يا أمير المؤمنين : هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ،

وتمكنت في الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغر  
 نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ،  
 ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ،  
 فامتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه  
 وبقائهما .

وقد سر الرشيد من وصف الكسائي ، وضم ولديه ، ثم  
 جمع يديه عليهما ولم يبسطهما حتى انحدرت الدموع على  
 صدره ، ثم أمرهما بالخروج ، فلما خرجا ظل الكسائي  
 يراقب هذا الموقف الغريب الذي فسر الرشيد بقوله :  
 «كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ،  
 وبلغ الكتاب أجله ، قد تشتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ،  
 وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح بهما حتى تسفك الدماء وتقتل  
 القتلى وتهتك ستور النساء ويتمنى كثير من الأحياء أنهم في  
 عداد الموتى .

وقد صدقت نبوءة الرشيد ، فما كاد يودع الدنيا حتى شب  
 بينهما الخلاف على الملك برغم البيعة التي علقها في الكعبة  
 والتي عقد فيها الأمر لعبد الله المأمون بعد أخيه محمد الأمين .  
 بويح الأمين بالخلافة في اليوم الذي مات فيه هارون  
 الرشيد ، ودامت خلافته أربع سنين وستة أشهر ، وكان

أصغر من المأمون بنصف عام ، وكانت أيامه من خلعه إلى مقتله سنة ونصفاً وثلاثة عشر يوماً حبس فيها يومين . . .  
 فما هي الأحداث الدامية التي مثلت على مسرح العراق ،  
 خلال هذه الفترة القصيرة ؟

أول ما فكر فيه الأمين هو خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وقد استطلع رأى القواد الذين كانوا يحيطون به فأدلى كل واحد برأيه حسب أهوائه ومطامعه ، فمنهم من حذره من نكث العهد ، ومنهم من وافقه على الخلعة ، وكان في طليعة القواد الذين وافقوه على خلع أخيه على بن عيسى ، فسيره في جيش عظيم نحو المأمون ، ولم يكذ يقترب جيش ابن عيسى حتى اصطدم مع طاهر بن الحسين - وهو من أعظم قواد المأمون - بقتال عنيف انتهى بهزيمة جيش الأمين وانهيار أمانيه ، وما كانت هذه الصدمة لتحسم الخلاف بين الأخوين ، فقد تجدد الصراع الدامي وما زال حتى حوصرت بغداد حصاراً عنيفاً انتهى بانهيار سلطة الأمين وتمهيد الطريق لينتقل المأمون من خراسان إلى بغداد ويتسلم صوبلحان الملك .

\* \* \*

يصف المسعودي الأثر الذي تركه حصار بغداد على عهد الأمين بقوله : « وقد خربت الديار ، وعفت الآثار ،



وقاتل الأخ أخاه ، والابن أباه ، هؤلاء محمدية وهؤلاء  
مأمونية ، وهدمت المنازل وأحرقت الديار وانتهبت الأموال .  
وبعد أن يصف الحصار يقول :

« وظلت الحرب بين الفريقين أربعة عشر شهراً ، فضاقت  
ببغداد بأهلها وتعطلت المساجد ، وتركت الصلاة ونزل بها  
ما لم ينزل بها قط مثله مذ بناها المنصور . وهذا الذي أثار  
الشعراء ليصفوا مدلهات هذه الفتنة العمياء ، فكان الحريري  
أبلغهم وأدقهم فافتتح قصيدته الكبرى بوصف بغداد في  
أيام زهوها بقوله :

قالوا ولم يلعب الزمان ببغدا	د وتعثر بها عواثرها
إذ هي مثل العروس بادئها	مهول للفتى وحاضرها
جنة دنيا ، ودار مغبطة	قل من النائبات واثرها
درت خلوف الدنيا لساكنها	وقل معسورها وعاسرها
وانفجرت بالنعيم وانتجعت	فيها بلذاتها حواضرها
فالقوم منها في روضة أنف	أشرق غب القطان زائرها
من غره العيش في بلهنية	لو أن دنيا يدوم عامرها
دار ملوك رست قواعدها	فيها وقرت بها منابرها
أهل العلا والثرى وأندية الـ	فمخر إذا عددت مفاخرها
أفراخ نعي في إرث مملكة	شد عراها لها أكابرها

فلم يزل والزمان ذو غير      يقدر في ملكها أصاغرها  
 حتى تساق كأساً مثملة      من فتنة لا يقال عاثرها  
 وافترقت بعد ألفة شيعاً      مقطوعة بينها أوامرها  
 وبعد هذا العرض الخاطف في وصف الشرر المتطاير  
 من الفتنة يقف الشاعر وقفة الرجل الأبى الذي صهرته الحياة  
 ليقرع أولى الأمر بونخزاته الأليمة وروحه الشاعرة فيقول :  
 يا هل رأيت الأملاك ما صنعت      إذ لم يزعها بالنصح زاجرها  
 أورد أملاكنا نفوسهم      هوة غنى أعيت مصادرها  
 ما ضرها لو وفّت بموثقها      واستحكمت في التقي بصائرنا  
 ولم تسافك دماء شيعتها      وتبتعل فتية تكابرنا  
 وأقنعتنا الدنيا التي جمعت      لها ، ورغب النفوس ضائرنا  
 ما زال حوض الأملاك ...      مسجورها بالهوى وساجرنا  
 تبقى فضول الدنيا مكاثرة      حتى أبيحت كرهاً ذخائرنا  
 تبيع ما جمع الأبوة للأبنا      لا أربحت متاجرنا  
 ثم يلتفت الخريمي إلى بغداد فيذكر ما آلت إليه قصورها  
 وبيوتها ، وما انتهت إليه قراها ودساكرها من أثر هذا  
 الصراع الدامي فيبكي بكاء محب صادق في حبه للبلد الذي  
 عاش في كنفه وينشد شعره الحزين بلوعة باكية :  
 يا هل رأيت الجنان زاهرة      يروق عين البصير زاهرها

وهل رأيت القصور شارعة  
 وهل رأيت القرى التي غرس الـ  
 محفوفة بالكروم والنخل والريـ  
 إلام انتهت بغداد ؟ — جنة الدنيا — يجيب بقوله :

فإنها أصبحت خلایا من الإز  
 قفراً خلاء تعوى الكلاب بها  
 وأصبح البؤس ما يفارقها  
 بزند ورد والياسرية والشط  
 وبالرحى والخيزرانية العـ  
 وقصر «عبدويه» عبدة وهوى  
 فأين حراسها وحارسها  
 وأين خصيانها وحشوتها  
 أين الجرادية الصقالب والأـ  
 ينصدع الجند عن مراكبها  
 بالسند والهند والصقالب والأـ  
 طيراً أبابيل أرسلت عبثاً

وكأنما الشاعر يقف قليلاً أمام هذا المنظر المؤلم ليرجع  
 القهقري إلى الماضي ويسائل نفسه مشدوها :

أين الأطباء الأبكاء في روضة الـ  
 ملك تهادى بها غرائرها

أين غضاراتها ولذتها  
بالمسك والعنبر اليماني والأط  
يرفلن في الخبز والمجاسد والمو  
فأين رقاصها وزامرها  
تكاد أسماعهم تسل إذا  
أمست كجوف الزمان خالية  
لا تعلم النفس ما يبايتها  
تضحى وتمسى درية غرضاً  
لأسمهم الدهر وهو يرشقها

ولا يكاد ينتهي الشاعر من هذه الذكريات الممضة حتى  
نراه يلجأ إلى حكمته وثاقب رأيه فيرفع الأمر من يدى القضاء  
والقدر ويلقيه على عاتق بغداد المغموسة في جمأة الترف  
والجهل والنائمة عن مجدها الناشيء فتنفجر عن هذه الصرخة  
الملتبة صيحات حزينة فيقول :

يا بؤس بغداد ا دار مملكة  
أمهلها الله ثم عاقبها  
بالخسف والقذف والحريق وبال  
كم قد رأينا من المعاصي بها  
حلت ببغداد وهي آمنة  
دارت على أهلها دواثرها  
لما أحاطت بها كباثرها  
عرب التي أصبحت تساورها  
كالعاهر السوء نام عاثرها  
داهية لم تكن تحاذرها

طالعتها السوء من مطالعته  
رق بها الدين واستخف بذى الـ  
وخطم العبد أنف سيده  
وصار رب الخيران فاسقهم  
ثم يصف الحرب التي دارت في أرض بغداد وفي أطرافها  
فيصف هول القتال ، ويصف حيل المحاربين ، وعدد الحرب  
وهذه الفوضى التي انبثقت في كل ناحية فيقول :

من ير بغداد والجنود بها  
كل طحون شهباء بأسلة  
تلقى بغى الردى أوانسها  
والشيخ يعدو حزماً كتائبه  
ولزهير بالقول مأسدة  
كتائب الموت تحت ألوية  
يعلم أن الأقدار واقعة

وأدركت أهلها جرائرها  
ففضل وعز النساء فاجرها  
بالرغم واستعبدت مخادرها  
وابتز أمر الدروب ذاعرها  
قد ربقت حولها عساكرها  
تسقط أحبالها زماجرها  
يرهقها للقاء طاهرها  
يقدم أعجازها يعاورها  
مرقومة صلبة مكاسرها  
أبرح منصورها وناصرها  
وقعا على ما أحب قادرها

• \* \*

وهكذا يمضي الحريري في وصف الحرب وصفاً واقعياً ،  
وفي وصف فتنة بغداد ، فلا يترك ناحية من نواحيها دون  
أن يعرض لها ، فمن وصف مظاهر الثورة ، إلى مكائد  
البطانة والقواد ، إلى التحام الجيشين ، إلى هذه المواقع التي

جرى فيها القتال ، إلى وقوف الأعمال واضطراب المتاجر ،  
 وإلى هجوم الرعاع على أسواق بغداد ، إلى هذا الذعر  
 الذى شمل قلب المدينة وأطرافها ، وكأنه كان يصف بتزعته  
 الفنية ما يسجله المؤرخ بلسان الواقع من ارتفاع أثمان القوات  
 مثلاً ، إلى هذا الحصار الذى دام طويلاً حتى أصبح الأثرياء  
 والتجار يتمنون لو خذل الأمين وانتصر المأمون ليستتب الأمن  
 وتسود الطمأنينة ، إلى غير ذلك من الكوارث والفتن التى  
 انصببت على عاصمة الخلافة الإسلامية فى تلك الأيام السود .  
 وقد كان الحريرى دقيق الحس ، بارع الوصف ، حتى  
 لم يهمل فى وصفه أهون عدد القتال ، فقد ذكر « المقلع »  
 كما ذكر المنجنيق :

خطارة يستهل خطاها	فى كل درب وكل ناحية
ر يزود المقلع باثرا	بمثل هام الرجال من فلق الصبح
من القطا الكدر هاج نافرها	كأنما فوق هامها عدف
وهى ترى بها خواطرها	والقوم من تحتها لهم زجل

أرأيت كيف يصف هذه الأحجار التى يقذفها المقلع  
 أو التى تقذفها سواعد الطرارين العراة — جنود الهرش !  
 يشير المسعودى إلى هذه الحادثة بقوله :

جاء قائد خراسانى إلى طاهر بن الحسين ، أكبر قواد

المأمون . وطالب إليه أن ينخصه بحرب يوم . فأجابه إلى طلبه بعد أن حذره من جماعه الأمين . ولكن الخراساني لم يهتم لهذا التحذير وقال :

« ما يبلغ من كيد هؤلاء ولا سلاح معهم - مع ذوى البأس والنجدة والسلاح والعدة ؟ » .

ونزل إلى ساحة القتال بما لديه من بأس ونجدة وسلاح وعدة . فماذا لقي ؟ لقد بصر به بعض العراة فرموه مدة طويلة حتى فنيت سهام القائد . . . . . وظن هو أن العراة فنيت حجارتهم ، فرماه أحدهم بحجر بقي في المخلاة ، فحمل عليه القائد ، فما أخطأ عينه ، وثناه بحجر آخر فكاد يصرع القائد عن فرسه ، ففكر راجعاً وهو يقول : « يا أبا طاهر ، ليس هؤلاء بناس ، هؤلاء شياطين » . هؤلاء الشياطين الذين اعتمدتهم الأمين لمقاتلة جيش أخيه المزود بأقوى عدد القتال في ذلك العصر وقفوا وقفه الكفاءة في هذه الحرب التي شنتها الشعوبية الأعجمية على العربية العربية .

لقد حاربوا أربعة عشر شهراً ، ثم وقعت المأساة بعد أن حوصرت بغداد حصارها الطويل ومنعت عنها الأرزاق وارتفع ثمن القوت عشرين مرة عما هو عليه في المناطق التي كانت



في حوزة المأمون ، وقد ضاق الناس ببغداد . وكان أكثرهم ضيقاً وبرماً الممولون وأصحاب الثروات الذين فرضت عليهم الأموال والودائع لمتابعة الحرب ، فما كاد ذريح والهرش قائدا الأمين يباشران جمع الأموال حتى هرب أكثرهم إلى خارج بغداد . إن الحريري لا يعرض إلى هذه الأمور التي عرضت لها كتب التاريخ ، وإنما يؤرخ هذه الأحداث بتزعمته الفنية ، حتى لكأنك تقرأ قصة من قصص التاريخ ، وهو إلى بكائه لا يشعر بتزعمته السياسية ، فلا تستطيع أن تعرف لونه الحزبي . أو كان يشايح الأمين أم يميل إلى المأمون؟ إن هذه النزعة لا تظهر إلا في القسم الأخير من القصيدة أي حين تهدأ الثورة . . . فهو هنا أميل إلى المأمون ، وإن كان قد أخذ على الاثنين أن يجعلوا بغداد — هذه العروس الجميلة التي يصفها في مطلع قصيدته بأنها جنة الدنيا — أتون هذه الفتنة اللاهبة .

وينخيل إلينا أن الحريري نظم قصيدته هذه في عدة فترات من حياته ، في احتدام أوارها ، وفي نهايتها المحزنة التي انتهت بمصرع الأمين وارتقاء المأمون سدة الملك ، وترك الآن هذه الاستطرادات لتتابع الشاعر في وصفه هذه الفتنة في أسواق بغداد :

بل هل رأيت السيوف مصلته      أشهرها في الأسواق شاهرها  
 والخيول تستن في أزقتها      بالترك مسنونة حناجرها  
 والنهب تعدو به الرجال وقد      أبدت خلاخيلها حرائرها  
 ثم انظر إلى دقة الأداء وروعة البيان حين يصف الذعر  
 الذي أصاب فتيات بغداد :

معصوبات وسط الأزقة قد      أبرزها للعيون سائرها  
 كل رقود الضحى مخبأة      لم تبد في أهلها محاجرها  
 بيضة خدر مكنونة برزت      للناس منشورة غدايرها  
 تعثر في ثوبها وتعجلها      كبة خيل زيعت حوافرها  
 تسأل أين الطريق والهبة      والنار من خلفها تبادرها  
 لم تعجل الشمس حسن بهجتها      حتى اجتلتها حرب تباشرها  
 وهكذا فإن النزعات الإنسانية تبدو صادقة عند هذا

الشاعر الذي تثيره هذه الفواجع التي كان وقودها فتيات  
 مخدرات ، وعذارى ومعصوبات . وما أظن أن لوحة من  
 لوحات أمهر الرسامين تبلغ في الدقة من تصوير « الملح »  
 أو « الذعر » الذي صوره الخريמי قبل ألف عام ونيف  
 بقوله :

تسأل أين الطريق والهبة      والنار من خلفها تبادرها  
 وليس بمستغرب أن تتوالى هذه الصور قوية في شعر

الحریمی . فهو إلى نزعتة الفنية الصادقة في الوصف والتصوير  
 قد عاش في قلب هذه الفتنة أو على كذب منها يرقب  
 أحداثها وتطوراتها ، ويشاهد جثثها وقتلاها ويعرف رجالاتها  
 وموقدى نارها . فهو في كل ساعة أمام منظر محزن يفتت  
 القلب ويهز مكانن الشعور . ولا تعجب بعد هذا أن يحشد  
 هذه الصور الإنسانية المتابعة : وأن تسمع هذا الصوت  
 الحزين المنبعث من أعماق امرأة ثكلى تولول كالمجنونة :  
 يا هل رأيت الثكلى مولولة في الطرق تسعى والجهد باهرها  
 في إثر نعش عليه واحدتها في صدره طعنة يساورها  
 فرغاء تلقى النثار من يدها يهزها بالسنان شاجرها  
 تنظر في وجهه وتهتف بالثكلى ل وعز الدموع خامرها  
 غرغر بالنفس ثم أسلمها مطلولة لا يخاف ثاثرها  
 وكما بكى الحریمی لهذه الثكلى الحزينة التي ارتفع صوتها  
 بالولولة حين رأت مصرع ابنها وقد غرغر بالنفس — فقد  
 بكى ذلك المغوار الذي قضى في قلب المعركة دون أن تبكى  
 عليه أم ، أو دون أن يبكيه أب أو أخ أو ولد أو ذو رحم  
 أو صديق ، جثة ملقاة في الطريق تنهشه الكلاب بأظافرها  
 الحادة ، وقد خضبت بدمه :

وقد رأيت الفتیان في عرضة الم عرك معفورة مناخرها

كل فتى مناع حقيقته تشفى به فى الوغى مساعرها  
 باتت عليه الكلاب تنهشه مخضوبة من دم أظافرها  
 وتزخر عاطفته فيرسم الصورة تلو الصورة بمقطوعات تشيع  
 اللوعة الباكية فى كل كلمة من كلماتها ، وهو لا يقف  
 عند هذا الوصف المثير لأدق نزعات الألم ، بل يرسم  
 ما هو أبلغ وأقوى أثراً فى النفس . وكأنه فى وصفه بعض  
 صور هذه الفتنة العمياء يصف الحقد الإنسانى بأبشع  
 مظاهره ، بل يصف همجية القتال وبدأوته الأولى حين  
 يشير إلى الخيول التى تدوس بسنابكها جثث القتلى ، وهو  
 لا يستعمل كلمة الجثث ولا القتلى بل يقول : « أكباد فتية » ،  
 فهو يستعمل أصنى الكلمات وأرقها ليدل على شاعريته  
 المرفهة التى لا تنحدر به إلى اللفظ المهلهل مهما تعددت  
 صور القصيدة بل تتناول مرتفعة ، وهنا تبدو براعته الفنية :  
 أما رأيت الخيول جائلة بالقوم منكوبة دوائرها  
 تعثر بالأوجه الحسان من القتلى وغلت دماً أشاعرها  
 يطأن أكباد فتية صرعت يفلق هاماتهم حوافرها  
 ثم يعود إلى وصف المرأة البغدادية — تلك المرأة التى  
 كانت تزاول شؤون الحياة كما كان يزاولها بعلمها قبل ذهابه  
 إلى الحرب :

أما رأيت النساء تحت الحجا      نيق تعادى شعثاً ضفائرها  
يحملن قوتاً من الطحين على ال      أكتاف معصوبة معاجرها  
وذات عيش ضنك ومقعدة      تشدخها صخرة تعاورها  
تسأل عن أهلها وقد سلبت      وابتر عن رأسها غفائرها  
كأني بالحریمی فی قصیدته هذه يسجل هذه الأحداث  
فی يومیات ، فهو لم یرك ظاهرة دون أن یرسمها بریشته ،  
حتى تلك المنكودة التي نزلت السوق لتبيع ما لديها من متاع  
تقتات به ، فما هي إلا هنية حتى تنال عليها الأحجار  
وتسلب وتبتر الغفائر عن رأسها فتصبح حائرة ولهي لا تدري  
ما تفعله ! ...

ثم يقف الحریمی عند هذا الحد من وصف مظاهر هذه  
الفتنة وأطوارها ليلتفت إلى المأمون بعد دخوله بغداد فيخاطبه  
مخاطبة الند للند ، وينصحه أن يبعد عنه بطانة السوء ، وأن  
يسوس الأمور بعدل وحزم ، وأن يترفع عن هذا الذي  
انحدر إليه قواده وعماله ، ويطلب إليه أخيراً أن يؤدب  
رجالہ الذين عاثوا في المملكة وأفسدوا ، ويصارحه بما  
يشعر به ويحسه دون جمجمة أو خوف . فهو شاعر مستقل ،  
وهو ينقل إلى الخليفة ما يشعر به الجمهور ، ومن أول واجباته  
وقد أسدل الستار على هذه المأساة أن يوطد سلطانه على

العدل وأن يشيع الرحمة بين الجميع ، وأن يعيد لبغداد رونقها  
وجمالها ، وأن يكون مليكاً لكل وللمجموع لا لفئة دون  
أخرى فيخاطبه بقوله :

أصبحت في أمة أوائلها	قد فارقت هديها أواخرها
أدب رجالاً رأيت سيرتهم	خالف حكم الكتاب سائرهم
وامدد إلى الناس كف مرحمة	تسد منهم بها مفاقرها
أمكنتك العدل إذ حممت به	ووافقت مده مقاديرها
إلى أن قال :	

كم عندنا من نصيحة لك في الـ	له وقربي عزت زوافرها
دونك غراء كالوذيلة لا	تفقد في بلدة سواثرها
لا طمعاً قلتمها ولا بطراً	لكل نفس نفس تؤامرهم
جاءتك تحكي الأمور كما	ينشر بز التجار ناشرها
حملتها صاحباً أخاً ثقة	يظل عجباً بها يحضرها

وإننا لنلمس أنفة الشاعر وكرامته وترفعه عن الانحدار  
إلى هذه الأنانيات التي تركت بغداد ورجالها سنة وبعض  
سنة في ثورة لاهبة و قتال شديد . نعم ، إننا لنلمس هذا  
الإباء وهذا الشمم في هذه الأبيات التي ختم بها قصيدته ،  
والتي أعلن فيها عن شخصيته القوية التي عرفت مكانتها  
دون أن تنحدر إلى هذا الصغار الذي اعتاد ترديده شعراء

المديح في مثل هذه المواقف ، فأرسل قصيدته الكبرى مع أحد أصدقائه . ولعل هذا الذي أوغر عليه صدر السلطان أو صدر بطانته فضاع أكثر شعره ، ولم تحفظ لنا الأيام غير هذه القصيدة ومقطوعات في أغراض شتى لو جمعت لما بلغت قصيدة كاملة . وما نظن أن شاعراً قوياً له مثل هذا النفَس لا يكون له ديوان ضخم كدواوين من عاصره من شعراء الزنبي والمديح ، إلا أن تكون السياسة قد طمست آثاره الأدبية .

\* \* \*

ماذا يثير فينا نحن المبصرين فقد بصر شاعر أو فنان أو إنسان ذى موهبة فكرية ؟ ! إننا نحس نحوه الإعجاب أولاً ، ثم الشفقة والألم ، ولا سيما حين ننعم بما لا ينعم به من رؤية هذه العوالم التى تفيض بالسحر والفتون ، وسرعان ما يذوب هذا الألم حين نعلم أن القدر الذين سلب المكفوفين بريق عيونهم لم يتركهم يتخبطون فى دياجير الظلمة ، بل فتح لهم فى أعماق بصيرتهم منافذ أرتهم صور الكون بأشكال وألوان إن لم تكن بحقيقتها العارية فهى قريبة منها لا يسترها غير غلاثل شفاقة تكاد لا تفرق عن الواقع ، فالنهار المشرق ، والليل الساجى ، والشمس المشعة ، والبدر المنير ،



والنجم الساطع ، والطبيعة الباسمة ، والأشجار والأنهار  
والجبال والوديان ، وما إلى ذلك من نزوات حسية غير ملموسة  
كالحب والوجد والشوق والحنين والألم والأمل والحزن والفرح -  
كل هذا له عند الأدباء المكفوفين صورة التي لا تنأى عن  
حقيقتها .

وقد عرفت البشرية طائفة منهم تركوا في تاريخ الفكر  
الإنساني آثاراً خالدة ، وصدروا عن أخيلة رائعة وصور  
جميلة يقف المبصرون إزاءها حيارى ، فمن عهد هوميروس ،  
إلى عهد المعرى إلى عهد ملتون ، إلى طه حسين ، إلى  
كثيرين ممن عرفتهم الأمم في مختلف العصور - منذ تلك  
الآماد البعيدة وتاريخ الفكر يحفظ للمكفوفين روائع الآيات  
في الأدب والشعر والموسيقى . وفي تاريخ الأدب العربي  
طائفة كبيرة تركت ثروة ضخمة من الشعر والقصص في  
مختلف نواحي الحياة ، وقد حفزت هذه الظاهرة الحية أكثر  
من أديب أن يعقدوا فصولا خاصة في كتبهم عن ذكاء  
العميان ونواديرهم كابن قتيبة وابن الجوزي وابن نباتة وأبي  
بكر الخطيب وغيرهم وغيرهم . ورأينا أديبا من أدباء القرن  
السابع الهجرى - صلاح الدين أيبك الصفدى - يكتب  
كتاباً ضخماً عن نكت العميان فيؤرخ لهم وينقل نماذج

من أدبهم وشعرهم ونكاتهم ونواديرهم ، ويرينا نواحي طريفة  
من ذكائهم ودقة حسهم ، وهو كتاب على غاية من الغرابة  
والطرافة .

والشاعر المنسي الذي أنكرته السياسة في عهد المأمون  
يختلف في فقد بصره عن غيره من الشعراء ، فهو لم يولد  
أعمى كبشار ، ولم يكف بصره في الرابعة من عمره كالمرى  
وطه حسين ، بل درج في الحياة كما درج المبصرون ، فقد  
رأى النور حتى مله وعب من رحيق الحياة حتى الثمالة وشهد  
عن كثب اضطراب الدنيا — دنيا بغداد — وتقلقل أركانها  
واضطراب نزوات أبنائها وشهوات ساداتها ، ونعمت عيناه  
بشروق الشمس وغروبها ، وبجمال الطبيعة وجلالها ، حتى  
إذا انحدرت به الكهولة إلى وادي الشيخوخة العميق فجعه  
القدر ببصره فتألم أشد الألم ، ولكنه ما لبث أن تعزى عن  
فقد بصره بنور بصيرته وأنشد هذين البيتين :

فإن تلك عيني خبا نورها      فكم قبلها نور عين خبا  
فلم يعم قلبي ولكنها      أرى نور عيني لقلبي سرى  
وهذا عزاء أكثر المكفوفين .

وقد ردّد هذا المعنى كثيرون ، وما قاله ابن عباس :  
إن يأخذ الله من عيني نورهما      فني لسائي وسمعي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذى دخل      وفي في صارم كالسيف مأثور

\* \* \*

وتتفق كتب الأدب على أن هذا الشاعر المنسى من فارس ،  
نرح إلى الجزيرة والشام أولاً ، ثم إلى بغداد حيث اتخذها  
سكناً ووطناً . أى أنه فارسي المولد ، شامي النشأة ، بغدادى  
الموطن ، اتصل منذ هجر وطنه بخريم بن عامر المرى وآله ،  
فنسب إليه ، وقيل إنه اتصل بعثمان بن خريم ، وكان  
قائداً جليلاً وسيداً شريفاً وهو الموصوف بالناعم ، وعرف  
في البيئات الأدبية بكنيته الجديدة : أبو يعقوب الخريمى  
أكثر مما عرف باسمه : إسحق بن حسان بن قوهى -  
وهذا الشاعر الذى عاش أكثر أيامه في الشام وبغداد ،  
والذى صهرته العربية ببوتقتها ورفعتها إلى أعلى سماواتها ، ظل  
كثير التحنان إلى موطنه الأول ، كثير التفاخر بعرقه الأعجمى ،  
وكان الأيام لم تستطع أن تجث من أعماق صدره رسيس  
هواه الفارسي . وإلى هذا أشار بقوله :

إني امرؤ من سراة الصغد البسني      عرق الأعاجم جلد أطيب الخبر

لقد تغنى الخريمى كثيراً ببغداد ، وأحبها أصدق حب ،  
وبكاها أيام محنتها بشعر حزين ، ومع كل ذلك لم ينس  
وطنه الأول - بلاد الصغد - فما بلاد الصغد هذه ؟ وأين

تقع من بلاد الله الواسعة الأرجاء ؟

لقد ذكرها الفردوسي عرضاً في قصص الشاهنامه ،  
 ووصفها ياقوت في معجم البلدان وصفاً دقيقاً فإذا هي :  
 « ناحية كثيرة المياه ، نضرة الأشجار ، متجاوبة الأطيوار ،  
 مونة الرياض والأزهار ، ملتفة الأغصان ، خضرة الجنان ،  
 تمتد مسيرة خمسة أيام ، لا تقع الشمس على كثير من  
 أراضيها ، ولا تبين القرى من خلال أشجارها ، وفيها قرى  
 كثيرة بين بخارى وسمرقند ، وقصبتها سمرقند ، وربما قيلت  
 بالصاد » .

إذن فالشاعر من بلاد قد لونها الطبيعة بأجمل ألوانها ،  
 ومن قوم سراة طيبي الأعراق . والذي نرجحه أنه عاش  
 فترة من حياته في هذه المواطن السحرية التي وصفها ياقوت ،  
 حتى إذا تجاوز عهد الطفولة نزل الجزيرة والشام ثم استقر  
 في بلاد الرافدين ليأخذ العربية من ينابيعها ، فهل يلام  
 الشاعر إذا رجع إلى الماضي يذكر قومه ويذكر أحلام  
 طفولته وتلك المغاني السحرية من ربوع بلاده ؟

أما مولده فإن المصادر الأدبية والتاريخية لا تعرض إلى ذلك  
 أصلاً ، فهي تلمع إليه إلماعاً وتذكر مقطوعات من شعره  
 وأحاديث مبتسرة منه ، فنعلم منها أنه عاصر الرشيد واتصل

بكاتب البرامكة محمد بن منصور بن زياد ، وشهد هذا الصراع الدامى بين الأخوين : الأمين والمأمون ، وعاشر أبا دلف وأبا الهندام من قواد الرشيد ، وغيرهم من الأدباء والشعراء ورجال الفقه وكبار المجتهدين .

وإذا كانت فتنة بغداد قد وقعت سنة ١٩٧ هـ ، وكان الشاعر قد قال قصيدته فى أخريات أيامه . أى فى العقد السابع مثلاً ، تكون ولادته فى حدود سنة ١٣٠ هـ ووفاته فى سنة ٢١٠ هـ على أقرب تقدير ، ونحن لا نجزم بهذا التحديد بل نفترضه افتراضاً . وبعد ، فما أدرى لماذا يهم الباحثون بهذا النواحي الدقيقة من حياة الكتاب والشعراء ، فحسبنا أن نعرف العصر الذى ولد فيه الشاعر والبيئة التى عاش فى صميمها ، وما علينا بعد ذلك أن تكون ولادته قبل سنة مما افترضناه أو بعد خمس سنوات أو عشر مثلاً . وقد يهم القارئ أن يعلم رأى أئمة الأدب فى هذا الشاعر المنسى . وإنا موردون نتفاً من أقوالهم لندل على قيمة شعره : فالخرمى فى رأى المبرد جميل الشعر ، مقبول عند الكتاب ، له كلام قوى ومذهب مبسوط . وهو فى رأى أبى حاتم السجستاني أشعر المولدين ، ووصفه الأمير أبو نصر بن ماكولا بأنه من شعراء الدولة العباسية المجيدين ، وروى

الملاحظ بعض شعره مدللاً بقيمته وبلاغته ، كما أورد ابن المعتز رأياً للمبرد في كتابه طبقات الشعراء لا يختلف عن رأيه السابق فقال : كان الخريمي شاعراً مقلقاً مطبوعاً ، مقتدرّاً على الشعر ، وكان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيعطى الكثير ، وله في الغزل ملح كثيرة ومحاسن جمّة . وقد كان مذهبه في الأدب البساطة في الأسلوب ، فقد أجاب على سؤال وجهه إليه أحد الأدباء : ما بال شعرك ما يسمعه أحد إلا استحسنته ؟ قال :

« إني لا أبجاذب الكلام إلا أن يساهلني عفواً ، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه » .

ووضوح الأسلوب وأدب الطبع من أقوى عناصر الأديب في أداء فكرته ورسم خياله وشعوره . وكما عرّف أئمة الأدب للخريمي مكانته السامية في الشعر ، اعترف به كبار النقاد ، فرأينا الصولي في كتابه أخبار أبي تمام يورد آراء النقاد في تفضيل شعره على شعر أبي تمام فيقول :

ومن أعجب العجب وأفظع المنكر أن قوماً عابوا قوله —  
أي قول أبي تمام — :

كأن بني نبهان يوم وفاته      نجوم سماء خرّ من بينها البدر

وقالوا : كان يجب أن يقول كما قال الخريمي :  
 إذا قمر منهم تغور أو خبا      بدا قمر في جانب الأفق يلمع .  
 وهذه القصة تدل على أن الصولي انحاز إلى أبي تمام  
 — وكان من المعجبين به — في حين أن كثيراً من النقاد  
 كانوا يفضلون الخريمي عليه وعلى غيره من الشعراء .

والواقع أن شعر الخريمي يفيض بالقوة والوضوح ، بل  
 يفيض بهذه الألوان التي انثالت بين مقاطعه ، فهو كثير  
 الصور ، قد طبعته العربية بسرهما الأزلى . وكان لنشأته  
 الأولى ونزوله في غطفان أثر قوى في تكوين عقليته ،  
 فتزاوجت سلبقته الآرية وعقليته السامية ، وكان منهما هذا  
 الفيض الأخاذ الذي لمسناه في شعره .

وفي أدبنا أكثر من شاعر واحد نشأوا نشأة فارسية ثم  
 صبغتهم العربية بألوانها فكان لهم من هذا التزاوج العجيب  
 هذه الدقة في الوصف والنفاد إلى أعماق الأشياء ، وكانت  
 « الموضوعية » في شعرهم أظهر من « الذاتية » التي يتميز  
 بها أكثر شعراء العربية القدامى .

فتزعة الاستقراء والاختبار والمشاهدة وحب التوزيع  
 والقدرة على الجمع بين المتناقضات ، وهذه العقلية الإيجابية  
 التي تنظر إلى الحقائق كما هي ، حتى في الهجو والمديح —

كل هذا بعض ما اتصف به شعر بشار ومهيار وابن الرومي ،  
وهذا ما يمتاز به إنحريمي . وهو يختلف عن هؤلاء الشعراء  
— عدا ابن الرومي — بطول نفسه . نخذ شعر بشار مثلاً ،  
ففي شعره من متانة التركيب وحسن السبك ما لا تجده في  
كثيرين من شعراء عصره الذين انتموا إلى البيئة التي احتوته ،  
غير أن طول نفسه في قصائده قد يضع عليه شيئاً من قوة  
الانسجام وحسن السبك وجمال النسق ، بخلاف إنحريمي  
فإنك تجده مجوداً في الفنين : في قصائده الطويلة  
ومقطوعاته القصيرة . وقصيدته في فتنه بغداد من قوة الانسجام  
وحسن السبك ووفرة الصور وقوة الواقعية ما يجعلها من أنفس  
ما كتب في تصوير أعنف المعارك التي أثارها المطامع  
الإنسانية . ومن الحساسة بمكان أن يضع شعر هذا الشاعر  
وأن لا نعرف منه سوى بعض مقطوعات وقصيدته الكبرى  
التي هدتنا إلى تأريخ حياته بهذه الإمامة الموحزة التي نرجو  
أن تكون توطئة لبحث أوسع وأشمل في يوم ما .



## الأمير فخر الدين المعنى

رحلته إلى الغرب في القرن السابع عشر

من الشخصيات الخطيرة في تاريخ الأقطار السورية في العهد العثماني الأمير الدرزي المشهور فخر الدين المعنى الذي حاول إنشاء ملك يضم شتات الأقطار المتفرقة بين ولاية السلطان وشيوخ القبائل وأبناء البيوت الكبيرة ، وكان من أثر هذه المحاولة أن قضى فخر الدين حياته كلها في كفاح طويل ضد الدولة العثمانية وضد منافسيه من بني قومه ، ولم ينته هذا الكفاح إلا بانهزامه وقتله في القسطنطينية بأمر السلطان في سنة ١٦٣٥ .

يقول صاحب الأعلام : وفخر الدين هذا من آل معن ، المتصل نسبهم بربيعة بن نزار من أكبر أمراء هذه الأسرة ، وكان لها في أيام الحروب الصليبية بسورية شأن . ولد في الشوف بלבnaan ، وثبتت له إمارة الشوف بعد أبيه سنة ١٠١١ هـ ، وعظم أمره ، ووالاه الحرافشة حكام بعلبك في عهده ، وناوأ حكومة الآستانة واستولى على بيروت ، فجردت عليه

الحكومة التركية قوة لا قبل له بها ، فركب البحر فاراً إلى إيطاليا ، وكان له اتصال بآل مديسي « Medici » أمراء فلورنسه ، فتنزل عندهم سنة ١٠٢١ هـ وأقام إلى سنة ١٠٢٦ هـ ، فعفت عنه الحكومة وأعادته إلى إمارته وأنعمت عليه بلقب « سلطان البر » ، وكان جده فخر الدين الأول قد أحرز هذا اللقب . وامتدت سلطته حتى حدود حلب فلبنان إلى حدود القدس غرباً ، إلا أن ولايات حلب ودمشق والقدس لم تكن لها علاقة به ، فطمع في الاستيلاء عليها ، وشعرت الحكومة بفكرته هذه سنة ١٠٣٦ هـ ، فقبض عليه وحمل إلى الآستانة مقيداً مع ولدين له سنة ١٠٤٣ هـ ، فسجن مدة ثم عفا عنه السلطان واستبقاه في الآستانة ، فكثرت الوشايات ضده ، فأمر السلطان بقتله وقتل ولديه ، فقتلوا . وكان شجاعاً باسلاً ، طموح النفس عزيزها ، كثير الفتك بأعدائه ، محباً للعرمان . أبقى آثاراً تدل عليه .

\* \* \*

إن فكرة الاستقلال الذي حاول الأمير فخر الدين أن يحققها في هذه البقعة الواسعة الممتدة من حدود القدس إلى تخوم حلب هي التي جعلته يثور على الحكم العثماني ويعمل على تحقيق هذا الاستقلال بمختلف الطرق والوسائل الممكنة .

ولما خابت آماله وفشل في تحقيق أحلامه وأمنيته . ورأى  
إلى هذا أن حياته مهددة بالموت . غادر أرض الشرق  
إلى أوروبا ليوثق صلاته مع إحدى الإمارات الإفريقية . . .  
وكانت إمارة « توسكانا » هي التي اتجه إليها فكره . . .  
وهكذا كان فقد ركب البحر من ثغر صيدا في غرة شعبان عام  
١٠٢٢ هـ - وفي رواية عام ١٠٢١ هـ - هو وأسرته وحاشية  
كبيرة . ومكث في إيطاليا خمس سنوات عاد بعدها يتحدث  
عما رآه وما تركته تلك الربوع في نفسه من انطباعات ،  
ويظهر أنه حرص أن تدون هذه الرحلة ، ولا نعلم الأسباب  
التي حدثته أن يعتمد على أحد العلماء في تدوينها ، أمي  
مشاغله السياسية أم قصر بابه في الأدب ؟ أم هما معاً ؟ !  
- وهذا هو الأرجح - فلو كانت له مشاركة في الأدب  
لدون هذه الخواطر وهو في إيطاليا ولما أفضى بها - بعد  
عودته - إلى عالم من علماء صفد ، هو الشيخ أحمد الخالدي  
أحد أدباء ذلك العصر ، فدونها كما سمعها بلغة مضطربة  
أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى . . . وهذه المذكرات  
مدفونة في كتاب مخطوط أذاعها الأستاذ شفيق بك غربال  
عن نسخة مونيخ .

ونحن بدورنا نعتمدها لوصف هذه الرحلة الغريبة وأثرها ،

فى نفس أمير شرقى : كيف عبر البحر ؟ ما هى المسافات  
 التى قطعها بين الثغور السورية والثغور الإيطالية ؟ كيف  
 فاجأه القرصان ؟ كيف استقبل ؟ وكيف احتفى به ؟ ماذا  
 رأى فى مالطة وصقلية وناپولى وفلورانس ؟ كيف وصف  
 هذه البلاد ؟ هذا ما نريد أن نعرض إليه لطرافة الموضوع .  
 غادر الأمير أرض الوطن وهو لا يدري ما ينتبه له الغد ،  
 كانت الهواجس تقرض نفسه قرصاً ، وقد تحمل هذا العناء  
 فى سبيل فكرة غالية . . . وما كاد مركبه يبتعد عن الشواطئ  
 السورية ويقترب من مالطة حتى فاجأه قرصان مالطيون . . .  
 وقفوا المركب وأخذوا يسألونه عن وجهة سفره وما يحمله  
 من مال وزاد وعتاد ، فأجابهم الأمير جواب الصناديد  
 قائلاً إنه لا يحمل غير الرصاص والبارود ، فكان وقع هذا  
 الجواب عليهم كالصاعقة ، وكأنهم شعروا بقوته وجبروته  
 وأنه ليس تلك اللقمة السائغة التى يمكن أن تزدرد بسهولة  
 فتراجعوا وتركوه . وتابع سيره ، وكان البحر هادئاً والسماء  
 صافية . . . وما هى إلا أيام حتى هبت الرياح وعصفت  
 العواصف الشديدة فقلدت مركب الأمير فى اتجاه ومركب  
 حاشيته فى اتجاه آخر . . . أما مركب الأمير  
 فما زال يغالب أنواء البحر وهى تغالبه حتى وصل بكثير

من العناء إلى ثغر ليفورنيا من بلاد الكرانددوكا ، بعد أن مكث ثلاثة وخمسين يوماً في عرض البحر ، وما كاد يقترب من الشاطئ حتى خف إليه قارب إيطالي يحمل موظفين يعرف بعضهم العربية والتركية أخذوا يسألون الأمير عن هذه الرحلة وما يحمله المركب من بضائع ؟ وهل المسافرون مسلمون ؟ فأجابهم الأمير بقصته وثورته على السلطان وأنه جاء ملتجئاً إلى هذه البلاد إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ثم أفضى برغبته أن ينزل البر انتظاراً لمقدم المركبين اللذين يقلان حاشيته وبعض أفراد أسرته وهو لا يعلم أغرقوا في البحر أم لا يزالون في حرز الله وأمانه .

وهنا يحدثنا المؤرخ الصفدى عما قاساه الأمير من ملاحى المركب وكيف نفذ زاده من طول الرحلة ، فاضطر أن يرجع إلى الملاحين الذين أمسكوا عنهم الزاد ثم قبلوا أن ينحسوا كل فرد بخمس قطع من « البقسماط » مدة سبعة أيام ، وبنصف رطل من الأرز للجميع : وما زالوا في هذه الرحلة حتى وصلوا إلى ليفرن . . .

ذهب الخفراء يعلمون حاكم البلد بمقدم هذا الأمير الشرقى والتجائه إلى إمارة « توسكانا » فسمح له بالتزول بعد أن أدخل منطقة الحجر الصفى خشية أن يكون

قدومه من بلدة موبوءة بالطاعون . . . وما خرج حتى ذهب  
 إلى الحاكم فاستقبله هو ووجوه القوم أحسن استقبال ،  
 ثم ساروا به إلى منزل الدوكا الذى كان متغيباً عن ليفورنا .  
 وأراد الحاكم أن يعلم سر هذه الرحلة والأسباب الحافزة  
 لمقدم هذا الأمير الشرقى الخطير فى مثل هذه الظروف ،  
 وأن يتيقن أهو الأمير المعنى حقيقة أم غيره ؟ فلما وثق أنه  
 هو الأمير فخر الدين رفع تقريراً إلى الدوكا الذى اختار وزيره  
 الكبير « لورنسوا » . « ليستقبله باسمه وليمنزله ضيفاً عليه ، وكان  
 الأمير فى قلق على حاشيته ؛ وما جاءه الخبر بوصول المركبين  
 إلى الشاطئ حتى زال قلقه وسعى لدى الحاكم ليدخلوا  
 البلد دون أن يحجزوا أربعين يوماً فى منطقة الحجر الصحى  
 خارج المدينة ، فوافق الحاكم بعد أن وثق أن هذه المراكب  
 قادمة من بلاد لا أثر للطاعون فيها . وبعد أن اطمأن  
 الأمير على أسرته وحاشيته ذهب هو وبعض أتباعه إلى مدينة  
 بيزا لمقابلة الدوكا ، وهنا يصف هذه المدينة بقوله :  
 « وهى مدينة عظيمة لها سور ونهر عظيم شاق المدينة ،  
 ويطلع فيه على الشخاتير والقوارب إلى مدينة فرنسا — أى  
 فلورانس ومن النهر المذكور خليج إلى ليفورنا . » ويقول :  
 « وفى هذه المدينة العوجا — ويريد البرج المائل بمدينة بيزا —

الذى معلقين فيها النواقيس لأجل الساعات وإخطار الصلوات ،  
ويسمونها ماريّا . وانعراج هذه المأذنة أمر عجيب فى صناعة  
البنّائين . معمولة مربعة . وجميع الأربع حيطان رخام  
مدماك أبيض ومدماك رخام أسود . وإذا رميت حصوة على  
مساحة حيطها من محل ضرب الناقوس ونزلت إلى تحت  
توجد الحصوة طبت بعيد عن حيطها الذى قرب الأرض  
خمسة عشر قدماً فيكون انعواج هذه المأذنة خمسة عشر قدماً ،  
ولم خالل بها شىء من بنيانها أبداً . وقالوا إن فى مدينة  
البندقية مأذنة أخرى عوجا مثل المذكورة .  
انتهى كلام الصفدى على لسان الأمير .

\* \* \*

لقد مر بمدينة بيزا مروراً سريعاً فأوحت إليه هذا الوصف ،  
وقد اشترط أن يدخل فلورانس فى الليل فأجابوه إلى طلبه ،  
وما كاد يطأ أرض المدينة حتى خف لاستقباله أكابر  
القوم ووجوه البلد يتقدمهم عم الدوكا الذى أركب الأمير  
إلى جانبه فى عربة فخمة تجرها خيول مطهمة ، وسار  
الموكب يخترق شوارع المدينة إلى قصر الدوكا الذى استقبله  
مع زوجته وأركان إمارته أحسن استقبال ، ثم أخذ يلاطفه  
ويعينه بأطايب الحياة . وقد شكر الأمير للدوكا حسن

ضيافته وشرح له غرضه من هذه الرحلة ، وهى لا تعدو الحصول على المعونة الحربية والتأييد السياسى لتنفيذ خطته فى بناء استقلال مملكته وسلخها عن الإمبراطورية العثمانية ، ولا نعلم بماذا أجابه الدوكا ، ولكن المتفق عليه لدى ثقة المؤرخين أنه لم يتقدم من دول أوربا لتأييد الأمير فى سياسته إلا إمارة « توسكانا » . التى لم يحل صغرهما واضطراب الأحوال فيها دون طموح الأمراء لتحقيق ما قصرت الحروب الصليبية عن بلوغه ، ودون محاولتهم جعل « توسكانا » صاحبة المقام الأول فى التجارة والنفوذ فى الولايات السورية .

وإذ أضاف الدوكا الأمير وأنزله وأسرته أفخم قصور فلورانس ومهد له أطايب العيش ونعيم الحياة خصص له مهرة الطابخين ، وكان حريصاً أن يراعى دينه الإسلامى ، وكان الأمير قد طلب أن لا يأكل لحماً لم يذبح بيد مسلم ، فاستدعى له من ليفورنا الحاج محمد قواس باشى - وكان من جملة حاشيته - ليتولى ذبح الذبائح . . . وهكذا ظل الأمير فخر الدين فى ضيافة الدوكا ينتقل من قصر إلى قصر ومن متحف إلى حديقة ومن قرية إلى ضاحية وهو مفتون بجمال فلورنس وبهذه الطبيعة الخلابة ، بل بهذه المظاهر الغربية التى تختلف كل الاختلاف عن بلاد



الشرق. فماذا تركت هذه البلاد: وخاصة فلورانس، في نفسه؟  
 لقد فتنته هذه المدينة بطبيعتها الخلابة، وبهذه الآثار  
 التي تحتويها من كنائس وحدائق وقصور وآثار . . . وأي  
 امرئ يقضى شطراً من حياته في فلورانس ولا تعجبه هذه  
 المدينة التي أوحى «الألعوبة الإلهية» إلى دانتي، وأوحى  
 أجمل آيات الأدب والفلسفة إلى أناتول فرانس، وجمعت في  
 أطوارها الفن والشعر والأدب والفلسفة والسياسة والإقطاع  
 والدين والوثنية وكل منازع الحياة البشرية في ظل آل  
 مديشي - وبديهي أن تعجب هذه المدينة التاريخية  
 الأمير فخر الدين الذي لم يكد يرجع إلى أرض الوطن حتى  
 قص على رجالاته هذا الذي رآه وأعجب به.

ولكن من سوء حظ الأمير أنه لم يهياً له أديب ملهم  
 ينقل هذه الانطباعات بلغة سليمة وبيان صحيح - لذلك  
 جاءت المذكرات ركيكة مضطربة، بعيدة عن الانسجام . .  
 يصف الشيخ الصفدي، على لسان الأمير المعنى، قصرها  
 القديم وقصرها الحديث، ويصف قناطرها ونهرها وهذه  
 الجسور الجاثمة في قلب المدينة، ويشير إلى اتصال النهر  
 بمدينة بيزا، ثم يذكر أبواب فلورانس التسعة وسورها  
 العظيم، ولا ينسى أن يذكر حالتها الاقتصادية وما كانت

تجبيه الحكومة من الضرائب وتستوفيه من الرسوم : « وقالوا إن ضمان كل باب في السنة سبعة آلاف شكوة - ضرب من النقود الإيطالية يعادل قرشاً وربع قرش - فكل ما يدخل المدينة يستوفى عشره للحاكم » ثم يشير إلى الرسوم الجمركية التي تستوفى عن كل ما يدخل هذه المقاطعة » ثم إلى الرسوم التي تفرض على الخمارات والدكاكين وكل المبيعات .

وأتيح للأمير فخر الدين - وهو في ضيافة دوكه فلورانس - أن يشهد عيد المرافع الذي يقيمونه قبل صيامهم الكبير ، وترك وصفها للشيخ أحمد الخالدي الصفدي الذي دون هذه المشاهدات على لسان الأمير . . . قال بلغته الركيكة المعقدة المضطربة :

« . . . وفي ذلك الوقت حكم عندهم عيد المرافع الذي يعملوه قبل صيامهم الكبير ، ويعملوا في ذلك العيد لعب متنوعة ، من ذلك أنهم يعملوا وجوه مصبغة ويلبسوها ويشيلوا ما في باطن بيض الدجاج ويخطوا موضعه ماء الورد ويتضاربوا فيه مع الأكابر مع بعضهم بعضاً ، ومع النساء . وأما الأصاغر يخطوا موضع الماء ورد ماء ويتضاربوا فيه ويخطوا خودة على خشبة ويضربوا الخودة في الرمح والفرس راكض والرمح يمسكوه من أسفله ، والرمح كلما له يبدق أعلاه (؟)

والرمح ما يكون له جرن بل يكون في رأسه منزل رصاص حتى يعلم موضع الضربة وعندهم الخيال الشاطر الذي يصيب عين الخوذة يأخذ الرهينة . وكذلك يسابقوا بين الخيل في زقاق عريض في وسط المدينة . من طول المدينة إلى طولها ويقف الناس يتفرجوا على الجانبيين ، ومن الطيقان أيضاً . ويركبوا الخيل ويسابقوا بينهم إلى الأولاد الذي عمرهم من العشر سنين إلى العشرين سنة ويركبوا الخيل من غير سرج في اللجام فقط وفي يد الولد القمشا الذي يضرب بها الخيل ويمحطوا بريق في رأس الزقاق والذي يسبق للبرق يأخذ الرهينة لأن أصحاب الخيل الذي يتسابقوا كل من يحط بشيء . وكذلك يركبوا رجال على بغال شموص وبعد نبط البغال إلى وراء وتعرضهم (؟) وقلت مطاوعتهم البغل الذي يسبق يأخذ الرهينة على منوال الخيل . وكذلك يركبوا ناس على خيل وبغال ودواب أصغر ما يكون ، وعلى ظهورهم جلود نمرة والدباب وغيره على صفة يأجوج ومأجوج وكذلك يتسابقوا بين الناس وهم في الزلط في الوزرة لا غير ، والذي يسبق يأخذ الرهن مثل سباق الخيل . وكذلك يجيبوا الخنزير الذكر البراوى يعملوا له جورة صغيرة من خشب ويلبسوا جمل الحديد من رأسه إلى قدمه ويكون مع الرجال خنجر

وينزلوا الرجال إليه ويفضل يتماعك الرجل هو والخنزير (؟) فإذا الرجل قتل الخنزير يعطوه الخنزير . وكذلك يعملوا في الليل لعب ويرقص الرجال والنسوان في بيت كبير ويعملوا في البيت شيء حتى يبان أنه بعيد وله حمرة مثل حمرة السما ، وناس معدية في وسط الحمرة على نوع الملايكة وكذا يعملوا في أرضية البيت لوالب خشبية ويخطوها بقماش على لون البحر ؟ واللوالب والخشب تبقا تدور من تحت حتى يبان أنه مثل موج البحر . ويمشوا فيه شختورة من تحت على عجل ومن فوق مثل الذي هي ماشية على البحر ويطلعوا منها مقدار خمسة عشر نفساً مرداً من أحسن الناس ويطلعوا يعملوا رقص ومحاكاة . وكذلك يعملوا صورة مدينة فرنسا وصورة مدينة أليفورنا بنهرها وجسورها . ويعملوا دواب بعجل معدية على الجسور حتى صورة أليفورنا في قلاعها وحنديقتها وماء البحر دايرة على الخندق . ويعملوا أشياء كثيرة وما شاكل ذلك ولعب وأحوال عجيبة وغريبة . وكذلك يرقصوا النسوان والرجال كل من يرقص مع نده أمرات ( امرأة ) الدوكا مع الدوكا ، على مراتب أكابرهم في البيوت لأن عاداتهم ما تحتجب النسوان عن الرجال ، لا في الرقص ولا في الزقات حتى إذا غاب الرجل تقعد المرأة تبيع في الدكان عوضه .

ثم يحدثنا بهذه اللغة التي لا تشوق الأديب وإن شأقت  
نصوصها المؤرخ — يحدثنا عن التحف التي رآها الأمير وأهمها  
صور سلاطين الإسلام ومشايخ العرب وكرة الأرض والسموات  
السبع وحادثات الزمن وتطورات الكون ، قديمه وحديثه .  
ثم صور اليهود الذين صلبوا المسيح بألبستهم القديمة . . .  
ثم انتقل إلى وصف آلات القتال من منجنيق الحصار إلى  
المدافع . . . ثم وقف وقفة المدهوش أمام الكنيسة القديمة  
المشيقة من المرمر فأذنتها المبنية بالرخام الملون ، ولم ينس أن  
يذكر الأربعمئة والخمسين درجة التي يصعدون عليها إلى  
القبة لضرب الناقوس — هذا الدرج النحاسي المطلى بالذهب  
والذي تتسع كل درجة منه لصعود عشرة أشخاص . ثم  
يصف دار المسكوكات والقلعة ويشير إلى ثروة الدوكا التي  
يقدرها على رواية بعضهم بثمانين ألف غرش كل يوم ،  
أو عشرة كرات كل سنة — والكرة مائة ألف ذهباً .  
ويذكر أن الحكم في آل مديتشي قديم يرجع إلى سنة  
تسعمائة للهجرة ، وأن بلادهم معمورة ومضبوطة بالطاعة ويفسر  
« كران دوكا » بالأمير الكبير ، وإذ يتحدث عنه يقول :  
« وزعموا أن هذا الأمير أكبر من جميعهم ، وجميع سلاطين  
النصارى يكاتبوه ، وراهبين منه ، وحكمه متوارث ، لا ينقل

عنهم هذا الحكم : ولا هذا الاسم ، ولا يودى خزنه لأحد السلاطين بل ميله بالمحبة إلى سلطان إسبانيا أكثر .

وإذ طالت إقامة فخر الدين عند دوكة فلورانس رأى الدوكا أن يخصص له داراً وراتباً سنوياً يتصرف فيه كما يشاء ، وهكذا كان . فخصص له في كل سنة ألفى غرش وعربة للترهة وأخرى لقضاء مصالحه . فنقل أسرته وحاشيته من ليفورنا إلى فلورنس وأنزلهم في هذه الدار التي يصفها وصفاً رائعاً : فهي قرية من المدينة — أى من فلورانس — يحيط بها بستان من أجمل بساتين إيطاليا ، مزدهر بأفانين الرياض وأطايب الثمر وبدائع الزهور ومتنوع أصناف الطيور عدا أحواض المياه وهذه الثماثيل الصامته والتمائيل المتحركة . . . « وفي هذا البستان — الكلام الآن للشيخ الصفدى — مصورين فيها آدمية — يريد الهياكل — وكل آدمى في يده ملها من ساير الملاحى . وله موضع يسيبوا الماء إليه ولوالب إذا وصل الماء إليه يبقى كل شخص يلعب في الآلة التي بيده » . ولا ينس أن يدون طريقة تنظيف الشوارع العامة وطرح الزبالات خارج المدينة ، وأن يشير إلى أنواع الدجاج وندرة القرنبيط وندرة تجعل الفقراء لا يذوقونه . . . يذكر هذا ويذكر غلاء العجل ورخص الغنم وقلة الحماموس وفقدان الجمال بالمرء . . .

ثم يذكر ميلهم إلى الزراعة وحرصهم على تربية الإوز والبط والأرانب وكثرة أنواع الطواويس ، وغلاء الطاووس الأبيض الذى يعد أفخر أنواعها وتحريم صيد الحمام وغير ذلك مما لفت نظره . . . .

ولا شك أن الأمير فخر الدين برغم ما كان يحز في نفسه من ألم الغربة وحنينه إلى أرض الوطن ، وهذا الاضطراب الذى كان يسود أفق بلاده وفشله في تحقيق حلمه السياسى — برغم كل ذلك كان يرى من كرم آل مديتشى ومن هذه الألوان الغريبة في نواحي الحياة ما ينسيه ألم غربته وفرقة وطنه . . . .

\* \* \*

بعد أن وصف الأمير فخر الدين مظاهر رحلته إلى إيطاليا ، وما رآه في عرض البحر وفي فلورانس التى خلبت لبه . أخذ يصف البلاد الإيطالية التى زارها والانطباعات التى تركت أثراً قوياً ، في نفسه فوصف تافه الأشياء وخطيرها ، ولم يترك شاردة دون أن يحرصها ، وما هوذا يحدثنا عن بیمارستانات التى أعدت لإيواء الفقراء والمرضى والسهر على راحتهم وصحتهم دون أى مقابل ، وعن أديرة أشبه بملاجئ اللقطاء وأديرة خاصة ببنات الأسر الكبرى وأخرى للفقيرات

وغيرها للأولاد وللرجال ولأولئك الرهبان المتقشفين الذين يلبسون الصوف على أجسامهم والذين يخلقون وسط رؤوسهم ودوائرها مع احتفاظها بالأكاليل لوضع الشوك رمزاً للشوك الذى وضعوه على رأس السيد المسيح يوم صلب . . . أولئك الرهبان الذين لا يمسكون القضة ولا الذهب ولا يركبون دابة ولا فرساً ويعيشون من الإعانات دون أن يكون لديهم أى وقف . . . ثم يحدثنا عن المصارف فى ذلك العهد وعما يجبى باسم المقاطعة من أموال تصرف على عمرانها كتعبيد الدروب وإصلاح الجسور وتبليط الأزقة وتنوير الشوارع عدا ما يرصد من هذه الأموال لصرفه على الجنود وابتياح أدوات الحصار ومعدات الحرب . . .

ويتحدث عن المعاهدات السياسية ومعاملة البلاد والأسرى فى أثناء القتال وحرصهم على التمسك بعاداتهم القديمة . . . ثم ينتقل بأحاديثه إلى فن الطباعة ، وعن المطبوعات التى طبعت باللغة العربية قبل ثلاثمائة سنة فى إيطاليا فى حين كانت المطبعة لم تنتقل إلى الشرق . . . وبعد أن يشرح شكل الطباعة العجيب وما عمله المطبعة من قذف كل ألف نسخة دفعة واحدة يقول : « إن كتاب قانون ابن سينا فى الطب وعظمه فى جلد واحد يباع عندهم بسبعة أو ثمانية قروش » .



وكما يسود الاضطراب لغة هذه المذكرات يسود حوادثها ،  
 فبينما تراه يتكلم عن الطباعة إذا به ينتقل إلى زراعة الكتان  
 فحراسة الطرقات فكيفية عمل الصابون فصيد الخنازير والحجل  
 والبط والسماك على مختلف أنواعه . . . وهكذا . . . وهذا  
 منطق عصور الانحطاط الذى يتميز بالاضطراب والتفكك  
 سواء فى المعنى أم فى المبنى . . .

وبينا كان الأمير يقطع أيامه بهذه الرؤى والمناظر ،  
 ينتقل من ناحية إلى ناحية لا يعلم ما يجتبه له القدر من  
 مفاجآت ، إذا بسلطان إسبانيا يكلف حاكم مسينا أن يوجه  
 دعوة إلى الأمير فخر الدين لزيارة مسينا . وقد توجهت الدعوة  
 إلى الأمير بواسطة « الكراندوكا » الذى خيره بين الذهاب  
 والبقاء ، فلم يشأ الأمير أن يخل بواجبات الضيافة وهو  
 لاجئ سياسى ، فأحب بدوره أن يرى رأى الكراندوكا الذى  
 أطلق له الحرية ، وزاد بأن سفنه مسافرة إلى مسينا فإذا كان  
 له ثمة رغبة فالأمر له . . . وكأنه أحب أن يخفف عبء  
 ضيافته عن إمارة توسكانا فركب البحر هو وأسرته وحاشيته  
 على إحدى سفن الكراندوكا إلى مسينا . وما وصلوا إليها حتى  
 استقبلوا باسم سلطان إسبانيا أحسن استقبال ، وكأنما  
 النزعة العربية قد استيقظت فى نفس الأمير الإشباني عندما

رأى هذا الأمير العربي فبالغ في إكرامه وإنزاله أحسن منزلة ولكن كل هذه الحفاوة لم تكن لتنسيه بلاده فكان كثير الشوق إلى أخبارها . . . وما لبث مدة حتى قرر أن يركب البحر مع أول مركب يتجه إلى الشرق . وهكذا كان فقد أبلغ رغبته إلى حاكم مسينا فهد له السبيل بعد أن أبى أسرته وحاشيته في ضيافة الحاكم . وسافر مع قرصان الطليان ووجهته مالطة ، ومنها إلى السواحل السورية .

وما كاد المركب يرسو في ثغر مالطة حتى دعاه حاكمها الكراندي مايسنرو ، وهو رئيس فرسان القديس يوحنا أصحاب مالطة ، فقبل دعوته . وهنا يقول إن حكام مالطة وضباطها وجنودها يظلون بغير زواج كالرهبان ، وعدد الأهالي اثنا عشر ألفاً ، وهم أشبه بانكشارية الشام . وأترك وصف الجزيرة للخالدي الصفدي فهو صورة صادقة لتفكير مؤرخي العرب في القرن السابع عشر :

« . . . وقالوا إن في جزيرة مالطة اثنتان وستين قرية ومدينتين لا غير لأن دور الجزيرة ستين ميل ولما طلع حضرة الأمير ضربوا له جميع المدافع من القلعة والأصوار ولما وصل إلى عند كران ما يسطرو لاقاه ورحب به وبقي عنده ثلاث أيام في الإعزاز والإكرام ونزهوه وفرجوه على خندق المدينة إلى عملوه

جديد وهو عظيم في العمق والوسع . وجميع أزقاق المدينة مفروشة بالبلاط . وطلبوا من الأمير أن يعملوا له ضيافة في بستان کران مايسطرو لأنه من عجائب الدنيا فامتنع الأمير عن الرواح إلى البستان لئلا يصير لهم كلفة زائدة ولا طولة . . . وفيما بعد عاد تندم الذي ما راح وتفرج عليه وودعهم واستكثر خيبرهم ونزل للغليون — أى للمركب — فأرسلوا له على نوع الزوادة من الغنم والدجاج والملبسات والمحليات ومن البهارات والخبز والخضارات شيء زايد وأخذوا الخبز من مالطة لابن باشة مسينا — أى حاكمها — الذي يسمى الدوكا توجه إلى مدينة بليروما قاعدة جزيرة صقلية وإن جماعة الأمير وأعياله توجهوا إلى بليروما كذلك . . . » .

فنفهم من هذا النص أن أسرة الأمير التي تركها في مسينا قد رافقت الحاكم إلى بليروما — قاعدة صقلية — حيث التقت بالأمير . . . ويحدثنا أن أمواج البحر ظالت تتقاذفه سبعة أشهر كاملة حتى وصل إلى صقلية حيث أخذ ينتقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى الكرك أى الموضع المعروف باسم Palamadegreeci في جنوب غربي بلرم ، وفي هذا المكان رأى الأمير أناساً يختلفون بأزيائهم عن سكان جزيرة صقلية . . . ولدى محادثتهم فهم أنهم قد هاجروا إلى هذه الجزيرة من

جور العثمانيين . وهنا يقول على لسانهم : « نحن كنا ساكنين تحت يد المسلمين من بلاد جزر آل عثمان ومن كثرة الظلم والقهر رحلنا في مركب وجينا طلبنا من حكام بليرموا مزرعة فأعطونا هذا الموضع وهو خالي خراب فبقين نحن وأهلنا وعيالنا وأولادنا نحطب ونبيع على المدينة حتى صار معنا صارمية - أى رأس مال - واشترينا فدان وأبدرنا إلى الزرع ونصب المزرعة . فلما كثرتنا وأملينا المزرعة وأرضها في الفلاحة والملك طلبنا غيرها فأعطونا مزرعة ثانية ثنية فعمرناها وعمرنا جميع أرضها . فلما تزايد نشوها طلبنا مزرعة ثالثة كذلك فأعطونا إياها وعمرناها وهذه الثلاث مزارع كانوا خراب . . . فقلنا كم أنتم اليوم نفس فقالوا نحن اليوم نجى بثمانمائة رجل وأعيال وأولاد . . فقال لهم إيش قدرة الغنى منكم ؟ فقالوا من الثلاث آلاف إلى الثلاثين ألف قرش . . . فقال لهم كم سنة لكم في هذه البلاد فقالوا أزيد من سبعين . فقال لهم كم أنتم رجال يوم جيتم فقالوا جينا سبعين عائلة . »

ويصف باليرموا بأنها « مدينة عظيمة ، لها صور وأربع أبواب ، كل باب يقابل باب » وبعد أن يصف أبوابها وأزقتها وكنيستها ووفرة مياهها وسكانها وبساتينها وفواكهها

الكثيرة وغلتها ورخص مواردها ، يقول إن في بايرموا عائلات مسلمة وأناس من أسر بنى حفص الأندلسيين الذين هجروا إسبانيا من الجور الذى نزل بهم . ويذكر الصفدى الجامع الإسلامى الواقع خارج الصور فى بايرموا الذى شاده الفاطميون حين كانت جزيرة صقلية تحت سلطانهم . . . . ويصف قبابه المرتفعة أجمل وصف .

وبعد أن ظل الأمير مدة فى جزيرة صقلية توجه إلى نابولى التى وصف بيوتها بأنها مغطاة بالحجر من خمس طوابق إلى سبعة وأن تعداد سكانها ستمائة ألف نفس ، وفيها قلعة كبيرة مطلة على البحر وقلعة ثانية أصغر منها فتالفة قائمة على صخر أصم عال يرجع بناؤها كما رآه فخر الدين لسنة ١٥٥٥ ، أى لعهد شارل الخامس . . . . ويزيد بأن بلاد نابلى منسقة ، عظيمة فى الكبر وفى كثرة الناس . . . . وهنا يقول : « وذكروا أن مدينة سلطان فرنسا باريز قدرها مرتين » وأن فى نابلى سبعين دوكا . . . . وقد مدت إليها المياه وفيها بساتين كثيرة . . . . وبعد أن يتحدث عن حوادث نابلى الداخلية فى ذلكم العصر ونفوذه المكابلونشى وثروته ووصوله إلى أسمى مراتب إمارة نابولى بعد أن كان جندياً بسيطاً ، وعن النظام القاضى بأن تكفل الحكومة الخبز اللازم للناس وغير ذلك من الحوادث

قال إن بعض وجوه البلد تقدموا إلى الأمير فخر الدين يسألونه بلسان الدوكا الإسباني عن ميل السوريين إلى إسبانيا وعما إذا كانوا يرغبون في الانضمام إليهم فكان جواب الأمير جواب الرجل الأبى الحر الذي يحفظ كرامة وطنه ، وكرامة نفسه . وهنا ننقل هذا النص التاريخي بحروفه لأهميته : « كلاموه وقالوا إن رحنا إلى بلادكم قدر إيش يجوا ناس من أهلكم . فقال لهم الأمير : هذا أمر دين ما أقدر أكفل أحد . . . لا أخى ولا ولدى . ولا أهل بلادى : بل أنا عندكم وقدامكم . فقالوا إذا ما جاءوا معنا ما يبيعونا ذخيرة . . . فقال لهم : أنتم تعرفوا قوة دين الإسلام وقوة آل عثمان . . . بل الذى مراده يقهر القوتين ما يتكل على مشترى ذخيرة من الناس فأحكوا بلسان بعضهم بعضاً بلسانهم . وهزوا رؤوسهم من هذا الجواب وقالوا له كم كنت تجمع عسكر فى بلادك فقال لهم يوم كان المنصب علينا والحكم والحكومة فى أيدينا جمعنا أزيد من عشرة آلاف رجل من غير الذى يتأخر فى البلاد . . . وأما اليوم مالى حكم إلا على نفسى ، فتعجبوا من جوابه لذلك . . . وتركوا الكلام معه ومن ذلك اليوم وهذه الجوابات ما عادوا بالهم منه مثل عاداتهم ولا عادوا أعطوا العلاقة المعتادة وبقي يبيع صيغة وحواييج ويخرج على نفسه والذى معه وبقي

على هذا الحال مدة في نابل . وقد بجاءته وهو في هذه الحالة من الاضطراب دعوة من ملك فرنسا بالتوجه إليه ليشفع له عند السلطان العثماني للصداقة الوثيقة بينهما . فبعث يستأذن الكراندوكا . فلم يسمح له . وبذلك اعتذر له بكتاب لطيف . . . : وهنا يدون بمرارة محاولة سلطان إسبانيا إكراهه على ترك الإسلام والدخول في النصرانية فيقول : « وقال له هذا - الكلام للشيخ ناصر أحد أسرى العرب في نابل - جاء من سلطان إسبانيا مضمونه إن كان الأمير فخر الدين يدخل في ديننا نعطيه حكم على قدر ما كان عاطيه سلطان المسلمين في بلاده وأزيد ، وإن كان ما يرضى بذلك إن أراد يقعد وإن أراد يروح بلاده » . . . وضاق الأمير بهذه المحاولات وهو الذي هاجر إلى هذه البلاد النائية في سبيل حريته وسيادة بلاده ، أفيرضى أن تمس كرامته ويتناول الأجنبي إلى أقدم عقائده ؟ ! . . . كلا . وكأن الأقدار كانت تهيم له كل الوسائل لتعيده إلى بلاده فقد وصلته رسالة من أمه العجوز تستعجله بالعودة إلى أرض الوطن . . . وبعد أن فاتح الكراندوكا بعزمه على العودة والسماح له بذلك أخبر أسرته التي طارت تلك الليلة فرحاً حتى إنها لم تستطع أن تنام ، لقد اعتزموا السفر ثاني يوم : وها هي ذى الحقائق

والمعدات تنزل إلى المركب ، ولكن الكراندوكا قد ساورته  
الظنون بسفرهم المفاجيء فحبس عنهم « الباسبورت » وظلموا  
فى المركب ثمانية أيام دون أن يسمح لهم بمغادرة الثغر .  
وقد ضاق صدر الأمير من هذه المعاملة القاسية ، ورأى أن  
يستطلع الخبر من الكراندوكا الذى أوجس خيفة من أن ينقل  
إلى السلطان العثماني حالة هذه الإمارة الإسبانية ، وهنا جرى  
بينهما الحديث الآتى :

« . . . وقال له إلى أين تروح ؟ فقال إلى صيدا . . . فقال  
له من حاكم صيدا ؟ . فقال له ولدى فقال : إيش عمره ؟  
فقال : عشرين سنة . فقال له ما تفرع من ولدك وأهلك  
وأهل بلادك . . . فقال أنا ما فارقتهم على بغض ولا على  
عداوة . . . فقال إذا ما فرعت منهم ما تفرع من السلطان .  
فقال أنا إيش أريد من السلطان . . . أنا راضى باللقمة  
وشربة الماء وأنظر ولدى وأهلى . . . وإما رضوا منى بذلك  
وإلا الجبال واسعة وإن كان ما تساعنا الجبال وإلا الدنيا  
واسعة ونكون نفدنا كلام والدتنا . . . فقال له الدوكا تروح  
إلى إسلامبول . فقال له لو كنت أروح إلى إسلامبول ما جيت  
إلى عندكم كأنهم ظنوا أن الأمير يروح إلى إسلامبول ويحكى  
عن بلادهم وأحوالهم . . . فلما قال لهم هذا الجواب طاب خاطرهم . »



وانتهى هذا الحديث بأن وعده أن يبعث له « الباسبورت » مع الترجمان كارلو الذى لم يكد يسلم الأمير جواز السفر حتى أخرج كيس دراهمه ووهبه له كما نزعَت الأميرة سوارها الذهبي وسلمته إلى الترجمان . وهكذا تحرك الموكب في أواسط شهر رمضان سنة تسع وعشرين وألف . وما زالوا يصارعون الأمواج بين ليل دامس ونهار مشرق إلى أن أشرفوا على عكا حيث استقبل أعظم استقبال ، وكانت عودته قد دوت في أرجاء البلاد وبعد أن مكث في لبنان مدة سافر إلى الآستانة فلقى هناك مصرعه بفعل الوشايات . وكانت حادثة سفره إلى إيطاليا من الحوادث التاريخية الكبرى .

---

من ألوان الحكم في عهد الانهيار العباسي

## الخلافة المقتدر ووزراؤه

هل عرف العرب نظام الحكم بمعناه الحديث ؟ ...  
إن هذا الموضوع شائك ذو شعبات طويلة يحتاج بحته  
إلى دراسة مستقلة . ولست أريد أن أتناول هذه الناحية  
بالدرس والبحث . بل أريد وأنا أتحدث عن ألوان الحكم  
في عهد الانهيار العباسي أن أشير إشارة سريعة إلى شكل  
الحكم عند العرب .

فالواقع أن العرب قبل الإسلام لم يعرفوا نظام الحكم بمعناه  
الحديث ، « فلم يكن عندهم قضاء يحتكمون إليه ، أو  
شرطة تقرر الأمن والنظام . وجيش يدرأ عنهم الأخطار  
الخارجية ، كذلك لم يكلفوا دفع الضرائب لعدم وجود حكومة  
تقبض على زمام السلطة التنفيذية . وتضرب على أيدي  
المعتدى وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه ، إنما كان  
للشخص المعتدى عليه أن يثار لنفسه بنفسه ، وعلى قبيلته  
أن تشد أزره » ، وهذا هو حكم القبيلة التي لم يكن لها

« قانون تسير وفق نصوصه بل كانت تحكم بما جرى عليه العرف . وقد قام العرف عندهم مقام القانون » . فلما جاء الإسلام « وضع الرسول نواة النظام الإدارى » كما وضع « نظام الدولة الإسلامية » عقب هجرته إلى المدينة . وسار الخلفاء الراشدون على نهجه وزادوا ما اقتبسوه من الأنظمة السائدة فى ذلك العصر — أنظمة الفرس والبيزنطيين ، فقد وجد العرب أن هذه الأمم التى بنوا حضارتهم على أنقاضها كانت ذات تاريخ مجيد عريق . من حيث الحضارة والمدنية والنظم السياسية وغيرها . . . كما وجدوا فى تلك البلاد التى فتحوها نظاماً إدارياً ثابتاً لم يكن بد من قبوله وإبقائه على ما كان عليه من قبل . ثم لإحداث ما عسى أن يتطلبه الإصلاح من التغيير الذى لا غنى للعرب عنه مما يتفق وعقائدهم الدينية ويتمشى مع مصلحة الشعوب التى دانت للمسلمين ، و « كان النظام الإدارى فى صدر الإسلام وفى عهد بنى أمية نظاماً بسيطاً ، فلم يتبعه نظام توزيع الأعمال على الإدارات المختلفة ، واختصاص كل إدارة بأعمال معينة كما فعل العباسيون الذين نظموا شؤون الدولة تنظيمًا حسنًا يعادل خير الأنظمة » . ولم يكن فى العهد العباسى وزارات مختلفة بل « جرت عادة الخلفاء العباسيين من أول عهد

خلافهم أن يسندوا أمرهم إلى وزير واحد يتولى شؤون الدولة في جميع مراقبها من مالية وإدارية وداخلية وخارجية ، وهو الذى ينب عنه من شاء في دوائر الاختصاص . أما النظام المعروف عندنا اليوم من توزيع أمور الدولة بين وزارات مختلفة فلم يكن يؤخذ به في العهد العباسى وإنما ساروا عليه في الأندلس .

هذه توطئة لا بد منها ، قبل الكلام عن ألوان الحكم في عهد الانهيار العباسى — في عهد الخليفة المقتدر ووزرائه ، وقد اخترت هذا العهد لأنه يمثل صورة مؤلمة من ألوان التفسخ والانهيار ، ولأن الحوادث وحياة الوزراء هي الصور الناطقة عن شكل الحكم في ذلك العهد الذى طوى معه سيادة عربية فانبثقت إمارات وقامت دويلات وثارَت خصومات ، وكان للنفوذ الأجنبى — وأريد نفوذ الفرس والترك وقد سيطروا على الشؤون الداخلية سيطرة مريعة — أثره في الانهيار الخارجى مما تذكره كتب التاريخ بإسهاب .

\* \* \*

ومن الوزراء العباسيين الذين لعبوا دوراً هاماً في خلافة المقتدر ، الوزير ابن الفرات — الرجل الفذ الذى مرت حياته بسلسلة طويلة من هذه التيارات التى تتقاذف الرجال

العظام . فبينما تراهـم في الأوج إذا بهم ينحدرون إلى  
الحضيض ، وبينما تراهـم في فيض من النعيم إذا هم في  
أتون من الجحيم . . . .

وقبل أن نبحث حياته ، وعوامل صعوده وهبوطه ، لا بد  
من كلمة عن الأحداث التي رافقت خلافة المقتدر — هذا  
الخليفة الصبي الذي تقاذفت نشأته وحياته الأعاصير . . . .  
في أوائل القرن الرابع الهجري هزت عاصمة العباسيين  
فترات من الحيرة والارتباك فيمن يرتقى سدة الملك بعد وفاة  
الخليفة المكتفي بن المعتضد بالله ، وقد انشطر الناس في  
بغداد شطرين ، أو كما يبدو لنا من مختلف الروايات أن  
حزبين قوين كانا يتنافسان الحكم : الحزب الحكومي الذي  
يستند إلى نفوذ رجال القصر وأكثرهم من الوصوليين الانتهازيين  
من فرس وترك ، وآخر من صميم الشعب يضم طائفة من  
القواد العظام ورجال البيوتات العريقة والشعراء والأدباء والشباب  
المتحمس القوى — وكانوا جميعهم غير راضين عن سياسة  
الدولة للتصرفات الشاذة التي تقوم على الأنانية والمزاج والمنفعة  
الخاصة دون اعتبارات المصلحة العامة .

كان حزب الشعب — إذا صح افتراضنا أن الحياة  
السياسية قد عرفت هذا التقسيم الحزبي الذي نعرفه اليوم —

يفكر في رجل من غير أبناء المعتضد يبايعه الخلافة ،  
 وحجته في ذلك أن أمور الدولة في عهد المكتفي قد انتكست ،  
 وأن التصديق في كيان الملك قد أخذ يزداد ، وأن المصلحة  
 تقضي أن يسند الملك إلى رجل قوى الشخصية ، شديد  
 المراس . تتوفر فيه كل الخصائص النبيلة ليقضي على هذه  
 الميوعة التي انتهت إليها الخلافة وإن تخطى هذه الاعتبارات  
 الوهمية التي تقوم على تقاليد الوراثة : وإذا كان من الصعوبة  
 بمكان إهمال هذه التقاليد فقد قر رأيهم على أن يرشحوا  
 من يتصل نسبه بالأرومة العباسية . ووقع اختيارهم على  
 ابن المعتز . . . ولكن بعض الغلاة الذين لا ينتسبون إلى  
 القصر أو إلى حزب الشعب تساءلوا همساً : أيستطيع هذا  
 الذي رشحوه أن يعيد هيبة الملك وسلطان الخلافة ؟ . . .  
 وكأنهم كانوا يقولون : أينسند الملك ، وهو مضطرب تعصف  
 به الأهواء ، إلى شاعر يعيش في غير عالمنا الأرضي ،  
 يعيش بين الكواكب والنجوم ، وفي ظلال الزنايق والورود  
 والخزام . . . أم يسند إلى صبي — وأرادوا ابن المعتضد —  
 وعمره لا يعدو عمر المني والأحلام !

وتسرب هذا اللغظ إلى العباس بن الحسن — الوزير  
 الأول في المملكة والذي كان يرغب ، في هذه الفترة العصيبة

من وزارته ، أن يوائم بين الآراء المتباينة : وأن يكون فوق الأحزاب وصدیق الجميع لئلا تزعزع أعاصير الانقلاب مركزه الوطيد فی دست الحكم ، ولا سيما قد كان كل فريق يتهمه بمناصرة الفريق الآخر ، حتى رؤساء دواوينه اتهموه بهذه التهمة وانشطروا فی هذه القضية شطرين : بعضهم يريد أن تظل الخلافة فی بیت المعتضد ، وبعضهم يميل إلى الشاعر ابن المعتز . . . .

وعقد العباس بن الحسن مجلساً وزارياً استطلع فيه رأى وزرائه فی هذه الأزمة الكبرى ، وفيمن يحسن مبايعته حين يلفظ المكتنى أنفاسه الأخيرة ، فجمعهم هذا وسكت ذاك ، وأخذ الجميع يطرقون لا يفصحون عن رأيهم ، حتى إذا أصر الوزير الأول ، وكان لا يزال يحتفظ بحيدته دون أن يميل إلى هذا أو إلى ذاك ، انبرى داود بن الجراح بصرخ بصوت عال — وكان هو الذى يغذى المعارضة من وراء ستار — :

« إن ابن المعتز هو أحق بالخلافة من الكثيرين لعدة اعتبارات : ١ — أنه فی الخمسين من عمره ، أى فى إبان نضوجه واكتماله ٢ — أنه ابن المتوكل ، أى من صميم البيت العباسى ٣ — أنه ذو مكانة مرموقة فى بغداد

٤ - أنه يمتاز على الكثيرين بفضل علمه وذكائه ورجاحة عقله . . . .

وابن الجراح هذا كان يرأس المعارضة ، وكان قوى الشخصية ، أنفق ثروته في شؤون الخير ، وكان من العلماء ومن أعرف الناس بالشعر ، حتى قال الصولي عنه إنه لا يعرف أنه وزير لبني العباس وزير يشبهه بعفته وزهده ، لذلك كان لكلمته قوتها في مجلس الوزراء . . . .

ثم جاء دور ابن الفرات ليدلي برأيه فاعتذر وقال :  
إن مهمتي أن أشاور في شؤون العمال لا في شؤون الخلفاء ، ولكن رئيسه لم يقبل منه هذا ، وإذ أخرجته جابهه بهذه الصراحة التي امتاز بها فقال :

إن هذا الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل ! . . . .  
فأدرك رئيسه ما يعنى ، فهو منهم عنده بميله إلى ابن المعتز ، وقال له لا أقنع بما ألمت إليه ، ولا بد من أن تمنحني النصيحة . . . .

قال ابن الفرات : أتريدها خالصة لوجه الله . . . هاك نصيحتي :

« فليترك الله الوزير ، ولا ينصب إلا من عرفه ، واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ،



ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعاً فيشره في أموالهم فيصادرهم ،  
ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة  
والآثام ، ويرجو الثواب فيما يفعله ، ولا يولى من عرف  
نعمة هذا ، وبستان هذا ، وضیعة هذا ، ومن قد لقي  
الناس ولقوه ، وعاملهم وعاملوه ، ويتخيل ويحسب حساب  
نعم الناس ، وعرف وجوه دخلهم وخرجهم . . . .

فقال الوزير صدقت ونصحت : فبمن تشير ؟  
قال : أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد . . .

قال : ويحك ! هو صبي . . .

قال ابن الفرات : ألا إنه ابن المعتضد ، ولم نأتى برجل  
كامل يباشر الأمور بنفسه ، غير محتاج إلينا ؟ ! . . .  
لقد سرت هذه الحملة الأخيرة في نفس الوزير الأول  
سريان الكهربا ، فإسناد الملك إلى صبي في العقد الأول  
من عمره معناه انتقال السلطة إليه مباشرة يصرف شؤون الملك  
كما يريد . . . وقد تكون هذه الحملة هي التي حفزت  
الوزير الأول أن يخرج عن صمته وحيدته ، وأن يعتبر  
مشورة ابن الفرات كأنها آية منزلة .

على أن ابن العباس لم يواجه الناس برأى ابن الفرات ،  
بل تركه سراً من الأسرار ، وظهر للشعب بوصية الخليفة .

ووصيته حين اشتد عليه المرض أن يُقلد الخلافة أخوه جعفر . وبذلك انحاز بصورة غير مباشرة إلى حزب القصر . وبويع جعفر بالخلافة . وأعطى لقب المقتدر . وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ، فكان لهذا الخبر وقع السيئ في جميع الأوساط العراقية : « لأن سيرة المكتفي لم تكن هذه السيرة العطرة أيام حكمه الذي دام ست سنوات ، فقد انتكست البلاد في عهده ، كما أن سيرة أبيه المعتضد لم تكن عطرة أيضاً ، وبرغم محاولته أن يعيد للبيت العباسي جلاله وهيبته ، وبرغم الإصلاحات العمرانية التي باشرها في بغداد اتصف حكمه بالقوة والجبروت ، وأرهب الشعب بالمظالم وألوان الضرائب . . . لذلك عارض حزب الشعب في ارتقاء هذا الصبي دست الخلافة ، وسرعان ما اجتمع بالوزير الأول القواد والقضاة والكتاب ومن يمثلون مختلف الهيئات وأعلنوا له استنكار الشعب لهذا التدبير الآفن وسخطه على هذه الخطة المعوجة ولم يكتموا رأيهم في إعلان بيعة ابن المعتز وخلع المقتدر .

بينما كان الشعب في ثورته الهائجة وغليانه الشديد ، كان الخليفة الصبي لا يعلم شيئاً عما يحاك حوله ، كان منصرفاً إلى لعبه . يقول المؤرخون : إنه ، في هذه البرهة ، كان

بالحلبة ، يلعب بالصوبلحان على عادة الملوك ، لا يدرى شيئاً مما كان يروع الشعب ، لأن سته لم تكن لتساعده على فهم دقائق الأمور .

أما ابن المعتز الذى اتفق المؤرخون والكتاب على أنه من أشعر بنى العباس ومن خيارهم فلم يكن هو أيضاً يميل إلى أعباء الخلافة ، ولا أن يزرع نفسه فى هذا المأزق الشائك فقد كان شاعراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من أجنحة وأحلام ، وكان رقيق القلب ، إنسانى التزعة ، فخشى أن يؤدى هذا النزاع إلى سفك الدماء . . . . . علام يزرع بنفسه فى مصطرع الأعاصير وله من مملكة الشعر ، ومن خمائل الورد والزهر ، ومن كؤوس الخمر ما يغنيه عن التردى فى مهالك الشر؟ . . . . . ولكن غير واحد ممن يمثلون طبقات الشعب أصدق تمثيل — ولعل فى طليعتهم ابن الجراح — رادوه أن يخرج عن تردده ، وشجعوه على المضى بقبول الخلافة . . . . . وإذ رأى هذا الاندفاع نحوه من أكثرية الشعب ومن قاداته ، ورأى القلوب تحيطه بالتجلة والحب قبل — وبريق الخلافة يستهوى وهو ابن خليفة — أن يضطلع بأعباء الملك . . . . .

فى هذه اللحظات العصبية ، وقف الوزير الأول موقف

الحائر المضطرب الذى لا يكاد يرى الرأى حتى ينقضه .  
 لقد نزل إزاء هذا التيار الجارف ، عند إرادة زعماء المعارضة  
 واتفق مع ابن الجراح وابن القاضى وابن حمدان - جد  
 سيف الدولة ، على خلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز . . .  
 ثم لم يلبث أن رجع عن رأيه ، فزاد الموقف بلبلة واضطراباً  
 وتعقيداً . . . فزادت نقمة الشعب عليه ، والطعن فى سلوكه ،  
 والإنكار لفعله والهجاء له ، فخاطبه بعض شعراء بغداد  
 بقوله

يا أبا أحمد لاتحسن بأيامك ظناً  
 واحذر الدهر فكم أهلك أملاكاً وأفنى  
 كم رأينا من وزير صار فى الأحداث رهنا  
 أين من كنت تراهم ؟ درجوا قرنا فقرنا  
 فتجنب مركب الكبر وقل للناس حسنا  
 ربما أمسى بعزل من بإصباح يهنا  
 اترك الناس وأيامك فيهم تمنى

نعم كان الوزير الأول ، إلى صفات الكبر والغطرسة التى  
 فيه ، يلعب على الحبلين . . . ولكن زعماء المعارضة لم  
 يلتفتوا إلى بلبلته واضطرابه فأعلنوا باسم الشعب خلع المقتدر  
 وتولية ابن المعتز . . . وانتهت البيعة بحياة رئيس الوزراء الذى .

عدوه أصل هذا الارتباك السياسى . قتله الحسين بن حمدان  
وبدر الأعجمى ووصيف . . . . . وبذلك — أى بنخلع المقتدر  
وقتل الوزير الأول — أسدل الستار على الفصل الأول من  
هذه المأساة الهزلية . . . . .

\* \* \*

وفى غد ذلك اليوم ، أى بعد أن نخلع الحزب المعارض  
المقتدر تمت البيعة لابن المعتز فحضرها الناس والقواد وأصحاب  
الدواوين سوى ابن الفرات وخواص المقتدر ، وكتبت الكتب  
بذلك إلى الولاية ووجه إلى المقتدر يأمرونه بالانتقال من دار  
الخلافة . . . . . فأجاب بالسمع والطاعة ، وسأل الإمهال إلى  
الليل ١٠

وقامت فى بغداد فتنة لاهبة . . . . . أثارها ابن الفرات  
ورجالات القصر وأكثرهم من الأسر الفارسية ، وكان جل  
اعتمادهم على الجنود المرتزقة ، فوقع الصراع الدامى بين الحكومة  
والشعب ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن خذل الشعب أمام  
طغيان الحكومة وبطش القوة ، ونجحت مؤامرة ابن الفرات  
بالمهجوم على القصر ونخلع ابن المعتز ، فانسل فى جنح الليل  
إلى البرارى . . . . . ثم قصد تَوًّا إلى دار ابن الحصباص فأواه . . . .  
وبذلك نخلع عنوة عن الخلافة ، وعاد المقتدر إلى دست

الملك . . . ولم يكد يتسلم زمام السلطة حتى أسند أمور الدولة إلى ابن الفرات ، وأصبح وزيره الأول الذى يركن إليه فى مداهيات الأمور ؛ وسرعان ما أخذ يبطش بخصومه السياسيين ، فاختنفى بعضهم وهرب الآخرون ، واستطاعت العيون أن تكشف مقر ابن المعتز ، فلم يكد يقع فريسة بين أيديهم حتى سلم إلى من عذبه الليل بطوله إلى أن مات . . . وفى رواية أنه خنق خنقاً ، كما قتل وزيره ابن الجراح الذى كان على رأس المعارضين ، وهو زميل ابن الفرات فى وزارة ابن العباس ، أما الحسين ابن حمدان — وهو من أقوى زعماء المعارضة — فقد فر هو وأهله ، ثم عاد إلى بغداد بعد أن عفا عنه المقتدر فى قصة ليس هنا مجال سردها . وهكذا لم تدم خلافة ابن المعتز سوى يوم وليلة ، فذهب ضحية الأهواء الثائرة ، وكأنى به كان يقول لقد صدق حدسى ، وكذب يقين أصدقائى الذين جرونى إلى هذا المأزق بعد أن كنت هذا الطير الذى يحلق فى الأجواء والنغمة الرقيقة المناسبة فى أذن القضاء . . . وبذلك انتصر حزب القصر ، وأفسح المجال لابن الفرات يتصرف بأمور الدولة كما يشاء ، ويحصر السلطة بنفسه ، وهذا الذى أراده يوم أخذ رأيه فى البيعة .



وقبل أن نسترسل في الحديث عن ابن الفرات لا بد من كلمة عن خلافة المقتدر - هذا الصبي الذي ارتقى دست الخلافة في ظروف غريبة ، وتعرضت حياته للقتل غير مرة ، وما زال في مصير مضطرب إلى أن قتل وهو شاب شر قتلة . . . ذلك أنه لم ينتزع الملك بنفسه انتزاعاً بل انتزعته له بطانته في سبيل مطامعها ونفوذها ، وكان الأمر في مملكته للمرأة التي لعبت أكبر دور في السياسة الداخلية ، فقد امتلأ قصره بالجواري والقهرمانات اللائي كان هن الرأى الحاسم في تسيير دفة الملك ، وكانت الحياة في تلك الفترة لونا من العبث واللذازات ، ولا بد لشاب قد أبطرتة النعمة من أن يأخذ حظه من الخمر والنساء . . . فلم تكن له هذه الشخصية القوية التي تفرض نفسها في الأزمات لتوجيه سفينة الدولة نحو شاطئ السلام . . . ولم يكن إلى جانبه هذه البطانة التي تسيّره في طريق الهدى والصالح أو في رسم هذه الطرق المثلى للحكم الصالح ، فما كاد يشب - والعصر في أسوأ حالاته - حتى بدأ يرهق الشعب بالضرائب والإذلال . . . كانت سيرته سيرة سيئة ، استوزر خلال خلافته اثني عشر وزيراً ، وكان أكثر وزرائه من زبانية

الشیطان . . . همهم الحكم السيء وابتزاز أموال الدولة وهدر حقوق الرعية ، وكان الوزراء يتنافسون فى جمع المال بالحق وبالباطل لتقديمه إلى السلطان : ولم يكن للشعب برلمانه یقظ الواعى الذى يحاسب الوزراء ويدافع عن حقوق الشعب بل كان الأمر للأنايات والشهوات . . .

صبی فى أول تفتحہ للحياة ، ما كان لیهم إلا بما یطفیء شهواته الثائرة ، كانت إلى جانبه قهرمانه جمیلة تسیره كما ترید ، لا تكاد مئات الآلاف من الدنانیر الذهبیة تدخل خزانة الدولة حتى تستنفذها دینا اللذات والأهواء . . .

وكان على وزیر الأول فى الدولة أن یشبع نهم القصر ؛ والویل ثم الویل له إذا قصر فى تقديم المال . إن أهون جزاء له الإقالة من الوزارة ومصادرة أمواله وسجنه . ولكى یشبع هذا النهم كان یلجأ إلى الطرق المعوجة لجمع المال بمختلف الطرق ، وهذا الذى حدا الكثير من المؤرخین أن یعتبروا خلافة المقتدر شرأ على الدولة العباسیة وبدء انهيارها السریع ، وحجتهم فى ذلك عدة أشياء أظهرها ، كما قلت ، انصراف الخلیفة إلى ملذاته وأهوائه ، وتحکیمه النساء فى شؤون المملكة وإطلاق الحرية لوزرائه تمتد أيديهم إلى أموال الدولة وأموال الناس دون حساب ولا رقیب ،



فقد كان عزل هذا الوزير وتنصيب ذاك من الأمور السهلة —  
كان عزل الوزير مبنياً على تقصيره في تقديم المال إلى الخزانة  
الخاصة . نعم ، لا يكاد هذا الوزير ينال ثقة الخليفة حتى  
يقيه غداً ليسلم الحكم لغيره . . . . ولا يمنع أن يعيد من  
أقاله بالأمس . . . من الوزارة إلى السجن ، ومن السجن  
إلى الوزارة ، وهكذا دواليك ؛ كانت الدسائس والمنافع  
الخاصة وتقديم الرشاوى هي التي تنهض بهذا وتنحدر بذلك ،  
وكان الوزراء أنفسهم يأتمرون ببعضهم في سبيل شهوة الحكم ،  
وكان لهذا ثمنه ، وهو تقديم الرشاوى لأم المقتدر ولقهرمانته ؛  
فالمرأة هي التي كانت توجه سياسة الدولة . وفي التاريخ  
حوادث مريعة عن حكم النساء ، بعضهن أدرن الحكم بذكاء  
ودهاء ولباقة ، وبعضهن انحدرن بالمملكة إلى مهاوى الضعف  
والانحطاط . ولا شك أن أم المقتدر — وهي رومية الأصل —  
كانت ذات أهواء ؛ همها أن تتمتع بما تتمتع به الكهولة  
المزهوة أو المرأة التي ودعت شبابها وكهولتها ، فهي تريد أن  
تتصاى ولو قوضت ألف عرش وعرش .

لقد فسدت الحياة السياسية وفسدت الحياة الاجتماعية  
وفسدت معهما الحياة الاقتصادية فكانت المملكة من السوء  
بمكان عظيم . . . .

كان عصر المقتدر يفيض بمختلف التيارات ، فبيوعة في الحكم واضطراب في الأمن ، وهدر للعدالة والحق ، واضمحلال يهدد المملكة بالزوال . وكان من وراء ذلك انبثاق الإمارات المختلفة في جميع أطراف المملكة ، ووثبات الروم على الثغور لاقتطاع بعض المناطق ، وغير هذا من الأمور التي مهدت للانهيـار الذي واجهته البلاد في مرافقها كافة نتيجة للأهواء والخصومات والأناية الهائجة المتحكمة التي لم تكن تستهدف أى بارق من المصالح العامة التي تصون المملكة من الاضمحلال ...

\* \* \*

في جو هذه الأحداث المظلمة عاش المقتدر حياة مترفة تفيض بالنعيم . كان أبوه المعتضد من الخلفاء الأقوياء ، له صولة وهيبة ، وكان يعيش في لون واسع من الترف ، بنى قصرأ في بغداد كلفه مبالغ ضخمة جداً ، وكان من أجمل القصور التي تحدث عنها المؤرخون بإعجاب ... وقد دخل عليه أحد الشعراء فسأله أن يصف القصر ، فوقف الشاعر مدهوشاً ولم يفتح عليه بكلمة ، ثم قال وهو ملثم اللسان مضطرب الجنان : ماذا أصف يا مولاي ؟ ! حسبي أن أقول إن الناس يبنون الدور في الدنيا ، وأنت

بنيت الدنيا في قصرك ؛ فكان لهذه الكلمة وقعها في نفس  
 الخليفة ، فخلع عليه الخلع الكبيرة ، وبره بأجزل العطاء .  
 وقد كان المقتدر في تبذيره مضرب المثل ؛ فقد تولى  
 الخلافة وفي خزانة الدولة خمسة عشر ألف ألف دينار ،  
 أى ١٥ مليوناً ، وجبى له خلال ملكه أضعاف أضعاف  
 هذا المبلغ الضخم من الدنانير الذهبية ، ومع ذلك فلم يكد  
 يأفل نجمه حتى كانت هذه الدنانير التى جمعت من جيوب  
 الرعية قد ابتلعها الأهواء والشهوات واللذازات . . . فقد  
 أخرج جميع جواهر الخلافة ونفائسها على النساء وغيرهن ،  
 وأعطى بعض محظياته الدرة اليتيمة وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل ؛  
 وأخذت منه زيدان القهرمانة سبعة جواهر لم ير مثلاً لها ،  
 قيمتها ثلاثمائة ألف دينار . . . هذا مع ما ضيع من الذهب ،  
 والمسك والأشياء الثمينة والتحف النفيسة . وقيل إنه فرق ستين  
 حباً من الصينى ( الحب : البحرة الضخمة أو الخالية )  
 ويقدر بعض المؤرخين أن المال الذى أتلفه في أيام خلافته  
 ثمانون ألف ألف دينار ، أى ثمانون مليون دينار . . . !  
 لهذه الأسباب ولغيرها كان المخلصون من زعماء الشعب  
 يعارضون في تولى المقتدر الخلافة ، فقد عرفت المعارضة  
 بثاقب بصرها أى مصير ستصير إليه المملكة حين ينتقل

أمرها إلى صبي تلعب به النساء والأهواء . . .

بعد هذه الإلمامة نستعرض سيرة بعض الوزراء الذين حكموا في عهد المقتدر : ففي سيرتهم نتبين لون الحكم ولون الحياة المتخاذلة التي نقرأ في أحداثها صفحات الانهيار المريع في أزهر أيام العهد العباسي . . . وليكن كلامنا عن ابن الفرات أقوى وزرائه الذين لعبوا دوراً كبيراً في خلافة المقتدر — هذا الوزير الذي تميزت حياته بألوان غريبة جدية بالدرس والوقوف عندها طويلاً .

\* \* \*

تتحدث كتب التاريخ كثيراً عن ابن الفرات الذي اختاره المقتدر ليكون وزيره الأول ، ففيه صفات نادرة أهله للوزارة بحق ، فقد سبقت له خدمات كثيرة في أمور الدولة ، وكان إلى عمله وفضله من أذكاء عصره ، ومن أعرف الناس بطوايا النفوس وأخلاق البشر . وكان إلى كل هذه الصفات من كبار الأغنياء . يقول الصولي : « وما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياح والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات » ، وكان سخي اليد حتى قيل إنه كان يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم ، وكأنه

قد عرف أثر الأصفر الرنان في النفوس ففتح خزائنه على مصاريعها ، وأخذ ينثر المال باليمين والشمال . وما زال حتى استطاع أن يؤلف القلوب حوله - قلوب الذين تستهويهم المادة وينكرون المثل العليا - وما أكثرهم في كل عصر ! وكان يجرى على الشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين ألف درهم رسماً لهم سوى ما يصلهم به متفرقاً عند مديحهم إياه . . . . وكان فيمن يدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتاب ، هم خاصة كتابه ، منهم أربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين : وكان له في داره مطبخان : مطبخ الخاصة ، ولا يمكن أن يحصى ما كان يدخله من الحيوان لكثرتة ؛ ومطبخ العامة الذي يختص بما يقدم إلى الحجاب المقيمين بالدار ، ويفرق منه للمسافرين والضيوف والبوابين وأصاغر الكتاب وغلمان أصحاب الدواوين . وتحصى الرواية مقدار ما يدخل إلى المطبخ العام كل يوم من المواشى والدجاج والطيور فتقول : « وكان يقدم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الغنم ، وثلاثون جدياً ، ومائتا قطعة دجاجاً سمناً ، وفراريج مصدرة ، ومائة قطعة دراجاً . وهناك خبازون يخبزون ليلاً ونهاراً ، وقوم يعملون الحلواء عملاً متصلاً ، ودار كبيرة للشراب ،

وفيه صهر يج للماء المبرد ، أى أن دار هذا الوزير كانت مدينة بذاتها ، فكان أصحاب المصالح الذين يشخصون إلى العاصمة لقضاء مصالحهم يتزلون ضيوفاً في هذه الدار يأكلون ويشربون ولا يبرحونها حتى تقضى جميع مصالحهم ! ...

تولى ابن الفرات الوزارة وبغداد تعج بالأعاصير ، ولكنه كان ثبت الجنان ، قوى الأعصاب وما كانت مثل هذه الأعاصير لتصرفه عن تدبير شؤون المملكة بالحكمة والأناة .

والقصة التى أروينا تدل على ترفعه وعلو نفسه ، ففي اليوم الذى تسلم فيه مقاليد الأمور قدمت إليه تقارير بأسماء خصومه ، فماذا عمل ؟ لم يقرأ هذه التقارير ، وهى كثيرة ، بل أمر بإحراقها ، وقال لمن كان حاضراً : والله لو فتحتها وقرأت ما فيها لفست نيات الناس كلهم علينا ، واستشعروا الخوف منا ، على أن هذا لم يمنعه أن يكون حذراً وأن ينكل بخصومه السياسيين ومن عملوا على خلع المقتدر . نعم ، كان إلى جميع هذه الصفات بعيد النظر فى فهم أهواء الأفراد وهواجس الجماعات ، فقد كان رجل دولة بكل ما لهذه الكلمة من معنى حديث . وما يروى عنه أن فقيراً ضاقت به وجوه الرزق فزور كتاباً باسمه إلى عامل مصر للوصاية به والإحسان إليه ، فارتاب العامل بالخطاب ، وأمهله ، ثم

أرسل الكتاب إلى ابن الفرات يسأله رأيه ، ولدى تلاوته  
 رآه كتاباً مزوراً وأن التوقيع ليس توقيعاً . فماذا عمل ؟  
 استشار كتابه ، فأشار بعضهم بالتأديب ، أو بقطع إبهامه  
 أو بكشف قصته للعامل حتى يطرده ويحرمه ، فقال ابن  
 الفرات : ما أبعدكم عن الخير ! رجل توسل بنا ، وتحمل  
 المشقة من بغداد إلى مصر في تأميل الصلاح بجاهنا ،  
 واستمداد صنع الله ورزقه بالانتساب إلينا ، تكون أحسن  
 أحواله عند أجملكم محضراً تكذيب ظنه وتخيب سعيه ،  
 والله لا كان هذا أبداً ، ثم أخذ القلم ووقع بخطه إلى ظهر  
 الكتاب المزور يوصي به ويقول : إن الكتاب كتابه .

\* \* \*

اختارت بطانة المقتدر أن يكون هذا الرجل الوزير الأول ،  
 وهو اختيار موفق لو أن ابن الفرات لم يكن من حزب  
 القصر ؛ ولكن حزبيته جعلته ينظر إلى خصومه هذه النظرة  
 الحاقدة التي لا تعرف غير البطش ، فعلى يده كانت  
 عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز ، فصادر من صادر ،  
 وقتل من قتل ، ووقع بين يديه أبو عمرو محمد بن يوسف  
 القاضي ، أحد خصومه السياسيين المشايخين لابن المعتز ،  
 فقرر قتله ، وعز هذا المصير على والده أبي يوسف ، وهو



شيخ جليل من شيوخ بغداد ، فجاء مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديداً رق له منه ، وسأله حراسة ولده ، فقال له الوزير ، الخيانة عظيمة ، ولا يمكن تخليته إلا بمال وفير يطمع الخليفة فيه ، فبذل الرجل كل ما يملك هو وابنه ، بل تخلى عن ماله وضياعه وجميع أملاكه . تقول الرواية : « وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر ، وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار ، فأدى منها تسعين ألفاً وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد » . وهكذا فقد فرضت عليه الإقامة الإيجابية بعد أن سلبه كل ماله .

كان ابن الفرات يعرف أن حياته وحياة الخليفة مهددتان بالقتل بين لحظة وأخرى ، فالترم الشدة في حكمه ، فقويت شوكته حتى خافه الكبير والصغير ، والغنى والفقر ، ووصل الأمر بعلي بن عيسى ، وهو من كبار رجالات بغداد ، أن تذلل له وقبل يده ويد ابنه ، وكان عمره عشر سنوات فلم يرقه هذا الاستعطاف والتذلل ، وقال : هذه طريقة لا أحبها . . .

ومما لا ريب فيه أن ابن الفرات من الوزراء المصلحين ، وكان يريد أن يقضى على الميوعة التي تكتنف سياسة الدولة ،



وأن يشهج سياسة إصلاحيّة واسعة ، ولكن السيطرة الفعلية لم تكن له ، بل كانت في الواقع ، لأم المقتدر ، ولقهرمانته وخليلاته . . . وهذا الذي جعل مهمته صعبة شاقة . . .

وقد كانت لهذا الوزير آراء غريبة في سياسة الدولة ، فمن أقواله : « أصل أمور السلطان مخزقة ، فإذا تمت واستحكمت صارت سياسية ! » وقوله « تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها عند الصواب ! » وكان يقول : « إذا كان لك حاجة إلى الوزير فاستطعت أن تقضيها بخازن الديوان أو كاتب سره فافعل ولا تبلغ إليه فيها ! » .

ومع ما كان يستدعيه موقفه من الحيلة والحذر فقد كان « يكره السعایات ويقطع الطريق على من يتجرون بالوشايات ويتقربون بها إلى صاحب السلطان ، فمن ذلك أنه كان إذا أتاه إنسان بشيء من هذا أهانه ، وقد ينادى الآذن علناً إذا أراد الاستئذان على الوزير : أين فلان الذي قدم كذا في السعاية » .

وكانت أمور الدولة عنده ورعاية مصالح الناس هي فوق كل اعتبار ، فقد عزم يوماً على الصبح وكان يوم الأحد ، ومن عادته أن يجلس للمظالم فيه ، ثم انتبه أنه لا يجوز أن يتشاغل بالسرور ، ويصرف عن بابه قوماً كثيرين قد

قصده من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مستصرخين ، هذا من أمير ، وهذا من عامل ، وهذا من قاض ، ويمضون مغمومين داعين عليه ، فأجلس صاحب ديوان المظالم وإنساناً آخر من خاصته ، وقضوا في جميع هذه المظالم مما جعل أرباب الظلمات مسرورين .

وكان حرصه على أموال الدولة مضرب المثل ، فقد رفع إليه أحد الفقراء عريضة يشكو فيها حاله وأنه مدين ، وعلى العريضة توقيع أحد الوزراء بوجوب قضاء دينه من مال الصدقات فأجابه بقوله : يا هذا إن مال الصدقات لأقوام بأعيانهم لا يتجاوزهم ، ولقد رأيت المهتدى بالله ، وقد أمر في مال الصدقات بما جرى هذا المجرى فقال له أهلها : ليس لك يا أمير المؤمنين ذلك ، فإن حملتنا على أمرك وإلا حاكمناك إلى قضاتك وفقهائك ، فحاكمهم فخاصموه ، وإن شئت أنت حاكمناك ، فقال الرجل لا حاجة بي إلى الخاصمة . . . قال ابن الفرات : الآن نعم أواسيك وأقضى دينك ، وفعل ، وكان مبلغه خمسمائة دينار ، دفعها من جيبه الخاص . ظل ابن الفرات في دست الوزارة قرابة أربع سنوات يسير سفينة الدولة باللين تارة وبالشدة تارة أخرى حتى وصل به الأمر إلى أن آخذاً من أطماع الخليفة وتبذيره ، ففى إحدى

السنوات احتاج الخليفة إلى أن ينفق في عيد النحر ما جرت به العادة ، فطلب أن يعطيه من بيت المال ما يصرفه في نفقات هذا العيد ، ويظهر أن نفقاته تجاوزت الحد المرصود له في موازنة الدولة ، فمنعه وألزمه القيام به من أمواله الخاصة ، ولم يصرف له درهماً واحداً . . . . . فإذا كان أثر هذا المنع في القصر : عند البطانة وعند خصوم ابن الفرات بصورة خاصة ؟ ! لقد وجد أعداؤه الطريق معبدة للوقعة به والدس عليه ، وما زالوا يوغرون صدر الخليفة عليه حتى صدرت الأوامر السامية بإقالته . وهكذا انتهت أول وزارة لابن الفرات بعد خدمات طويلة في توطيد عرش المقتدر ، بالغضب عليه وإقصائه من دست الحكم .

\* \* \*

بعد أن أقيـل ابن الفرات كان لا بد من البحث عن وزير جديد ، فوقع الاختيار على ابن خاقان ، وقد بدأ عهده بمصادرة أموال الناس بالحق وبالباطل لسد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه ، وكانت أول أعماله أن يضع يده على ثروة ابن الفرات — على ضياعه وأملاكه ، فتجمع لديه ما مقداره مليون وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحال والكراع والجبال ، ولكي ينال الخطوة عند الخليفة

حول من بيت المال إلى الخزانة الملكية الخاصة مليوناً وستمائة ألف دينار على سبيل القرض . وكأنما اعتبر أن ثروة زميله قد جاءتته عن طريق الوزارة ، ومن نفوذه وسيطرته على موارد الدولة ، فأباح لنفسه مصادرتها ! وقد كان لهذا العمل التعسفي أثره في نفوس مختلف الطبقات ، لا حباً بابن الفرات بل لأن شؤون الدولة أصبحت لوناً من الأحقاد والضغائن بين الوزراء أنفسهم ! وبالرغم من التزعات الدكتاتورية التي تميز بها ابن خاقان ، عرف بالضعف والميوعة والتهاون وإهمال شؤون الدولة إهمالاً صارخاً فاستبد به كتابه وأعوانه ، وكانت المراسلات الحكومية تجري دون أن يطلع عليها ، إذ كان أمناء السر والمقربون إليه هم الذين يتصرفون في شؤون الدولة . أما هو فحسبه من الوزارة مظهرها . وكانت التعيينات تجري بما لا يقره العرف والقانون ، كان يعين هذا ويسلم أمره لولاية من الولايات فلا يكاد يتجه إلى عمله حتى يعين غيره لنفس العمل ويسلمه أمره بيده ويعزل من سبقه ! ولكل مرسوم ثمنه ، حتى قال فيه بعض الشعراء :

وزير قد تكامل في الرقاعه ،      يولى ثم يعزل بعد ساعه  
إذا أهل الرشا اجتمعوا لديه      فخير القوم أوفرهم بضاعه

وليس يلام في هذا بحال لأن الشيخ أفلت من مجاعه !  
 كان ابن بخاقان إلى تهوره ونزعاته الديكتاتورية لين  
 العريكة ، لا إرادة له . لم يرفض لأحد حاجة ، وإذا  
 شكا أحدهم أمراً دق صدره بيده وقال : نعم وكرامة !  
 وكثيراً ما كانت وعوده تذهب هباء دون أن تنفذ ، لأن  
 السلطة لم تكن بيده حتى لقب في بغداد بالوزير « دق  
 صدره » ! وهكذا كانت وزارة هذا الرجل من أسوأ ما  
 عرفت بغداد ، فثار الناس وضج أرباب المصالح ، ووقفت  
 أمور الدولة ، وذهبت هيئة الحكم حتى اضطر الخليفة ،  
 تحت جميع هذه العوامل والاعتبارات ، أن يقصيه عن  
 الوزارة ، بعد سنة من حكمه ، وكان لا بد من رجل ينقذ  
 الموقف ؛ فمن هو هذا الرجل ؟ !

إن الخليفة لا يريد أن يكل الأمر إلى أحد من المعارضين ،  
 وفيهم رجالات وقفوا أنفسهم لخدمة المملكة بإخلاص وإنقاذها  
 من هذه الفوضى . وبعد تفكير غير قليل قر الرأي أن توكل  
 الوزارة إلى علي بن عيسى ، وهو رجل مسموع الكلمة ،  
 عرف بالزهد والتعبد — أنفق جميع ما يملكه في سبيل الخير  
 والبر ، وكان رجلاً وقوراً ، لا يعرف التبذل ، حريصاً على  
 صيانة أموال الدولة ، ولكن هذا الرجل لم يكن في بغداد ،

فقد سافر في خلال الفتنة إلى مكة ليلتعد عن هذه المهازل التي كانت تمثل على المسرح العباسي ، فاستدعى وقبل أن يتسلم زمام الدولة بمضض ، وكانت أولى أعماله أن يضع حداً للفوضى التي خلفها ابن خاقان ، وأن يعيد الأمور إلى مجاريها : والحقوق المهدورة إلى أصحابها ، فقد وجد في أيدي القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنه وكتابه في فك وإثبات ، وتقرير وإيجاب ، وكلها تنافي الحق والعدالة ، فأسقطها كلها دون أن يهتم لنتائج عمله عند الانتهازيين ، وقد نصحه أحد أصفياه بقوله : إنك أخطأت في عملك هذا ، لأنك تعلم ما للنساء من سيطرة على الخليفة ، وهذه الأعمال بوحى منهن ، وكلها لبعض خواص المقتدر وأتباع القصر ، فلم يسمع نصيحة صديقه وقال : إن الحق أحق أن يتبع ، ومن واجبات رجل الدولة أن يصون حقوق الأفراد والجماعات ، دون الاهتمام بالوساطات والمحسوبيات ! ولكن النتيجة كانت على غير ما أراد . ومع اتخاذ الشدة في الحكم ، والسهو على حقوق الرعية ، وإسقاط الكثير من الضرائب التي تثقل عاتق الشعب ، والحد من تصرفات رجال القصر وتبذيرهم — بالرغم من ذلك اصطدمت هذه النزعات الإصلاحية بالأعيب

المفسدين ، إذ بدأت السعايات والوشايات . وكانت النتيجة أنه لم يستطع أن يتحمل هذا الجحيم الموبوء فقدم استقالته وشرح سياسته في كتاب طويل يعتبر من أقوى الوثائق السياسية التي يلجأ إليها الوزراء في مثل هذه الساعات العصيبة التي يتخلون فيها عن الحكم ، فهو لم يقل إن استقالته بسبب شيخوخته أو مرضه بل شرح العوامل التي دفعت له هذه الاستقالة في كثير من الجراحة والصراحة . والغريب أن هذا الوزير لم يقدم كتاب استقالته إلى الخليفة بل قدمه إلى أمه ، فقد اعتبرها المتصرف في شؤون الدولة ، والمسؤولة عن كل هذا الخلل . وفي الكتاب تصوير دقيق لما وصلت إليه المملكة من انهيار ، ونصائح غالية فيما يجب عمله للتوفى من هذا الانحدار . ولكن ما قيمة هذه النصائح في خضم الأهواء والأنانية ؛ وربما كان هذا الوزير الوحيد بين وزراء المقتدر الذي أجمع المؤرخون على امتداح نزاهته ، فقد كان يشتغل في أمور الدولة ليل نهار ، وأبى أن يعين أبناءه أو أحد أقاربه في وظيفة مدة وزارته ، وبلغ به الاقتصاد في أموال الدولة إلى حد التقدير . اضطر إلى ذلك بعد أن رأى شدة التبذير والنهب والإسراف . . . ولكن هذا الموقف الصارم أمام تصرفات الكثيرين وتصرفات القصر وقهرمانته



هو الذى جعل الدسائس تأخذ طريقها لتشويه سمعته ،  
فقد ادعت أم موسى القهرمانة أنه أهانها حين طلبت إمداد  
القصر بالمال . ومع أن الروايات تتفق على أنه لم يقابلها ،  
وأن الذى صرفها عن مقابلته هو كاتبه ، ادعت عليه دعاوى  
مربية لدى الخليفة وأمه ، وهى دعاوى لا تصدق عن هذا  
الرجل لما اتصف به من زهد وورع ؛ ومع ذلك فقد لقيت  
تلك الوشاية طريقها إلى أذن الخليفة ، وكفى على تجرده  
وإخلاصه بالقبض عليه وزجه فى السجن . وهكذا لم يتح  
له أن يحقق برنامجه الإصلاحى وتوطيد سياسة الدولة على  
أسس ممكن . . .

من الوزارة إلى السجن ، ومن السجن إلى الوزارة . . .  
وهكذا كانت تجرى أمور الدولة وشؤون الرعية فى هذا  
الأتون المضطرب من الأحقاد والأنايات ، وفى فيض من  
الشهوات واللذازات !!

\* \* \*

والآن . . . من يخلف على بن موسى ؟  
لقد اتجهت الأنظار مرة ثانية إلى ابن الفرات . .  
نعم إلى ابن الفرات أبرز رجل فى خلافة المقتدر . . .  
وصدرت الأوامر السامية بإطلاق سراحه وإعادة حرية له . . .



من الجحيم إلى النعيم ، نعم ، من السجن إلى الوزارة ، وقبل أن نتابع حديثنا عن وزارته الثانية ، ننقل إلى مظهر من مظاهر الدولة في علاقتها الخارجية ، لنرى لوناً جديداً من البذخ الذى كانت تفيض به الحياة في عهد المقتدر بالرغم مما كانت عليه الخلافة في أيامه من التفكك والوهن والاضطراب .

فقد عاصر المقتدر من ملوك البيزنطيين لاون السادس ثم الملكة زويا . . . ووقعت بين الروم والمسلمين حروب امتدت إلى جهات أنقرة . ولن نتكلم عن هذه الحروب ، ونحن نلمع إلى مظاهر البذخ في خلافة المقتدر ، فحسبنا أن نشير إلى حفلة استقبال السفراء البيزنطيين الذين جاءوا للمفاوضة في طلب الهدنة وتبادل الأسرى . . . فقد اهتم المقتدر للأمر ، أو اهتمت به أمه - وهى رومية الأصل كما قلنا - وأنشأ داراً خاصة لاستقبال رسول الإمبراطور عرفت بدار الشجرة . ويسهب المؤرخون في وصف هذه الدار والعرض العسكرى وحفلات الاستقبال ، مما يدل على ما كان للمظاهر من أثر في مثل هذه العلاقات ، ونجتزئ بفقرات من هذا الوصف ، قال السيوطى :

« . . . وفي سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل الروم بهدايا وطلبت

عقد هدنة ، فعمل المقتدر موكباً عظيماً فأقام العسكر ،  
وصفهم بالسلاح وهم مائة وستون ألفاً ، من باب الشماسية  
إلى دار الخلافة ، وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ،  
وياليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ، وكانت الستور التي  
نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر  
من الديباج ، ومن البسط اثنين وعشرين ألفاً ، وفي الحضرة  
مائة سبع في السلاسل إلى غير ذلك .

أما الدار التي أنشأها خاصة لهم فقد وصفها الخطيب  
البغدادى ، أو وصف شجرة الفضة التي وضعت في الدار  
المسماة باسمها فقال :

« . . . وفيها شجرة في وسط بركة كبيرة ، مدورة ، فيها  
ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها  
شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع ، مذهبة  
ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها مذهب ،  
وهي تمايل في أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما  
تحرك الريح ورق الشجرة ، وكل من هذه الطيور يصفر  
ويهدر ، وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً  
على خمسة عشر فرساً قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي أيديهم  
مطارد على رماح يدورون على خط واحد ، فيظن أن كل

واحد منهم إلى صاحبه قاصد ، وفي الجانب الأيسر مثل ذلك . وقد كان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده .

وقد وصف لنا صاحب تاريخ بغداد شخص الخليفة فقال :  
 « . . . ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله ، وهو جالس في التاج مما يلي دجلة ، بعد أن لبس الثياب الدبيقية المطرزة بالذهب على سرير أبنوس قد فرش بالدبيق المطرز بالذهب — الدبيق نسبة إلى دبيق مدينة من مدن مصر كانت مشهورة بصنع هذه المطرزات الذهبية — وعلى رأسه الطويلة ، ومن يمينه السرير تسعة عقود مثل السبع معلقة ، ومن يسره تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبية الضوء على ضوء النهار ، وبين يديه خمسة من ولده ، ثلاثة يمينه واثنان يسره ، ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر فسجد ، وقال الرسول : « اؤنس الخادم القائد ونصر القسورى — وكانا يترجمان عن المقتدر — لولا أى لا آمن أن يطالب صاحبكم بتقيل البساط لقبلته ، ولكنى فعلت ما لا يطالب رسولكم بمثله ، لأن التفكير ، أى السجود من رسم شريعتنا » .

ولنرجع الآن إلى صاحبنا ابن الفرات الذى قلده المقتدر  
الوزارة للمرة الثانية ليصلح ما أفسده ابن خاقان . . . . . فيا ترى  
أفكر فى الإصلاح حقيقة لإتقاذ المملكة من التدهور ،  
أم استيقظت فى نفسه شهوة الانتقام والتكيل بخصومه ،  
فنسى مهمته كوزير نيّطت به الوزارة لخدمة الشعب والبهر  
على مصالحه .

لقد كانت أول التفاتة سامية من الخليفة المقتدر نحو  
ابن الفرات بعد أن أخرجه من السجن أن أعاد إليه ما كان  
قبضه عنه وعن أهله من الضياع والأموال ، وقد أخذ على  
نفسه وهو فى السجن ، أنه إذا أطلق سراحه أن يعيد إلى  
جميع من كان يفيد من عطاياه ، فحقق ذلك ، وتعهد  
للخليفة أن يقدم له كل يوم ألف دينار ، وإلى السيدة أمه  
والأمراء خمسمائة دينار ، فوفى بعهده . وكأنه بهذه الرشاوى  
قد وطم مركزه من جديد ، ولكن ظنونه كانت فى غير  
محلها ، فلم يكدر يرتقى دست الوزارة حتى أخذت الدسائس  
تحيط به . لقد هابه خصومه ولم يتورع هو عن التكيل  
بهم والانتقام منهم ، فهو الطبع البشرى يظل فى ضعفه  
مهما كان الإنسان عظيماً . لقد أراد أن يصلح الخلل  
الاقتصادى فوجه اهتمامه إلى المترمين والأعييب . وبدأ برجل

ربح مبالغ طائلة من ضمانة بلدة « واسط » . ولم يكن يعلم أن لهذا الرجل صلة بأمر المقتدر وأنه يشرف على ضياعها ، فلم يكذب يفسخ التزامه حتى أخذت الدسائس تحاك حوله . نعم ، كان هذا العمل وحده يكفي لأن تشوه سمعته لدى القصر من جديد . . . . ولا شيء يروج لدى حكومة النساء كالوشايات ولا سيما إذا كان لها مساس بالشؤون المالية الخاصة . فغضب القصر على ابن الفرات ، واستعاض عنه بحامد ابن العباس ، وهو ذو صلة وثيقة بأمر المقتدر . ولكن ليس لهذا الرجل من الخصال ما يؤهله لتسلم هذا المنصب الخطير . . . . كانت مزاياه المفضلة عند حواشي القصر أنه يعرف كيف يستغل موارد الدولة استغلالا لمنفعته الخاصة ، فضمن أعمال الخراج ، وجمع الغلال — أى حكرها — وكان من جراء ذلك أن ارتفعت أثمان الحبوب وزاد الغلاء ، فثارت العامة ووقعت حوادث دامية بين الأهالى والجنود مما اضطر الخليفة أن يفتح مخازن الغلال التى لحامد ولأمه ولغيرهما وبيع ما فيها بأبخس الأثمان فرخصت الأسعار وهذا روع الناس كما صدرت الأوامر بإقالة هذا الوزير الذى تاجر بخبز الفقير ! . . . .

بعد إقالة ابن حامد أعيد على ابن عيسى للمرة الثانية ،

وهو كما قلنا من الوزراء المصلحين وإذا عرف هذا الرجل  
بالاقتصاد الشديد خاف الجند والموظفون على رواتبهم ،  
فحاكوا له الدسائس وسرعان ما اتهم بالتزوير والرشوة وأعيد  
إلى السجن في قصة طويلة لا يتسع المجال لسردها . وهكذا  
كانت أمور الدولة تسير بين الاتهامات والنكبات وفي جو  
من الدسائس والوشايات . وحيى بابن الفرات ليتولى الوزارة  
للمرة الثالثة ، وكان في السبعين من عمره ، فأفسح المجال  
لابنه المحسن أن يحكم ، فانتقم لأبيه من حامد ، وكان ابنه  
ذا قسوة شديدة فعذب حامداً أقسى أنواع العذاب ، وأخيراً  
أنفذه إلى « واسط » لبيع أملاكه ، ثم دس من سمه في  
الطريق فمات ، وارتكب المحسن الكثير من الموبقات فنكب  
الناس وصادروهم وعذبهم عذاباً شديداً لاستخراج أموالهم حتى  
مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة ، وفيهم  
كبار رجال الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها . وقد واجهت  
بغداد ، في هذه الفترة ، ثورة القرامطة ففسد الأمر وكثر  
الإربحاف على ابن الفرات . وفي بعض الروايات أن ابن  
الفرات لم يتخرج في أخريات أيامه ، أن يمد يده إلى خزانة  
الدولة ، بل أضاف هو وأخوه كثيراً من ضياع السلطان  
إلى أملاكهما وعظم دخلهما ، وهنا صدرت الأوامر مجددة

بالقبض عليه سنة ٣١٢ هـ بعد أن استقر في الوزارة قرابة  
سنة . . .

من لابن الفرات غير ابن خاقان ، خصمه اللدود ،  
هذه هي الوجوه لم تبدل ؛ فقد كانت أمور الدولة بيد عدة  
أشخاص من هذه الأسر الفارسية ، وهي أسر عاشت في  
صميم الإقطاعية . وكانت أولى أعمال ابن خاقان أن انتقم  
من ابن الفرات وابنه الحسن وصادر منهما مليون دينار ،  
ثم عذب المحسن وطلب إليه أن يسلم ما لديه ، فامتنع  
وقال لا أجمع بين نفسي ومالي ، واشتد عليه العذاب بعد  
أن أضرب عن الطعام أياماً . ولما علم المقتدر بذلك أمر  
بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم قرر رجال الحاشية أن  
يقتلوهما فذبجوهما كما تذبح النعاج ، وقال الأب في الساعات  
الآخيرة من حياته بعد أن رأى هذا الهوان : المقتدر يفعل  
بي هذا ؟ ! . . .

وكأنه كان يقول أنا الذي صنت حياته ووطدت دعائم  
مملكته ثم يكون مبصيرى هذا . . .

وقد تناوب على الوزارة بعد ابن الفرات عدة وزراء لم  
تكن سيرتهم ولا سياستهم أحسن مما تقدم . وبالرغم من  
اختلاف شخصياتهم فقد اتفقوا في شيء واحد هو العبث

بحقوق الرعية وانتهاب خزانة الدولة ، وهذا الذى عجل بالانهيار .

\* \* \*

والآن نقف عند هذا الحد من عرض هذه الصور من حكم المقتدر — هذا الصبي الذى لبث على العرش خمسة وعشرين عاماً ، كان الحكم خلالها للأهواء والنساء وللمتولين بالمشعين من الأسر الفارسية التى ضربت الحكم العربى فى الصميم ؛ وكان ذلك بدء الانهيار فى المملكة العباسية نتيجة لانبثاق الأنانيات الهائجة وانغماس الدولة فى الشهوات والعبث بحقوق الأفراد والجماعات ، ثم التمكين للأيدى الأجنبية أن تلعب من وراء ستار — هذه وكثير غيرها مما ألمعنا إليه من عوامل الانهيار هى التى مهدت لانفراط عقد أكبر إمبراطورية عربية عرفتها الدنيا القديمة ، فكان من جراء هذه الآثام والنزوات أن تفككت وحدة العرب وأصبحت الإمبراطورية الكبرى دويلات متفرقة تتقاتل وتتخاصم فى سبيل العروش الخاوية والمناصب الكاوية فى حين كان العدو على الأبواب ، وما زال حتى تمت له السيطرة والغلبة ونام العرب نومتهم الطويلة ستة قرون كاملة . فما أحوجهم اليوم — وقد تم البعث — إلى الاعتبار بعظات التاريخ — وهو أبو العبر — نعم ،



ما أحوحنا إلى التجرد والإخلاص والإيمان بقداسة الحرية  
وتجنب الأغلاط والمفوات والنكايات ، ثم العمل متكاتفين  
يداً واحدة لبناء الإمبراطورية العربية الكبرى التي هي حلم  
كل عربي ...

---

### مصادر هذا البحث

- تاريخ الطبرى .
- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .
- النظم الإسلامية .
- الإسلام والحضارة العربية .
- النجوم الزاهرة .
- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية .
- الدولة العباسية : قيامها وسقوطها .



# اقرا

عنوان هذه السلسلة خير ما يوجهه  
إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما يوجهه  
إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.

السلسلة الشهرية الوحيدة التي تعمل  
منذ أكثر من سبع سنوات  
على جعل الثقافة في متناول الجميع.

نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن  
كبيرة الفائدة في كل منزل يستفيد  
منها الشباب والشيوخ على السواء.

تصدرها دار المعارف بمصر في طباعة أنيقة  
بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين  
والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ

